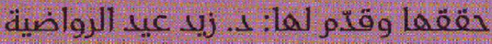
من فيينا إلى فيينا

رحلة محمد صادق رفعت باشا إلى إيطاليا 1838

▪ الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات 2016-2017







من فيـنا إلى فيـنا... رحلة محمد صادق رفعت باشا إلى إيطاليا 1838 / رحلات
حققها وقدّم لها: د. زيد عيد الرواضيـة / من الأردنّ
الطبعة الأولى، 2017

حقوق الطبع محفوظة ©





دار السـويدي للنشـر والتوزيع
أبو ظبي، ص.ب: 44480،
الإمارات العربيّة المتّحدة
هاتف: 6447474 2 00971
فاكس: 6449797 2 00971
E-mail: alrihla@gmail.com

المؤسـسة العربيّة للدراسات والنشـر
المركز الرئيـسي:
المصـيطبة - شـارع ميـشال أبي شـهلا - متفرع من جـسـر سليم
سلام - مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU - بناية النجوم -
مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 707892 1 00961 - 707891 1 00961
بـيـروت - لبـنـان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكتروني: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشـر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 4631229 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
تصميم الغلاف: ناصر بخيت / السـودان
الصفّ الضوئيّ: المؤسـسة العربيّة للدراسات والنشر/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسـمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

رقم الناشر الدولي: ISBN: 978-614-419-752-3

الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة

لتحقيق المخطوطات

2016 - 2017



من فيينا إلى فيينا

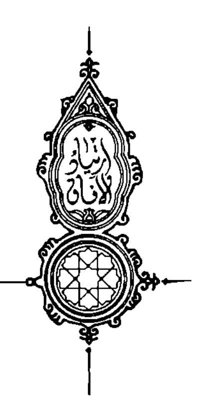
رحلة محمد صادق رفعت باشا

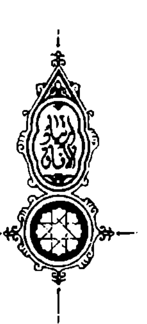
إلى إيطاليا 1838

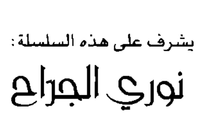


حققها وقدّم لها:

د. زيد عيد الرواضية






يشرف على هذه السلسلة:
نوري الجراح

«علمنا أنَّ في المدينةِ المذكورةِ دارًا كبيرةً وقديمةً وفيها رسمٌ لحضرةِ المرحومِ السُّلطان سليمان خان الأول جعلَ اللهُ الجنَّةَ مثواه ، فذهبنا قاصدينَ هذه الدارَ ، والحقيقةُ أنَّ هذا الرسمَ كان أولَ جلوسِ السُّلطان على العرش حيثُ يبدو وسيمًا وقد بدأتْ تنمو لحيتُه ، وتعلو رأسَه المباركَ عمامةٌ كبيرةٌ يوسفيَّةُ الشَّكلِ ويرتدي ثوبًا أخضرَ . . .»

الرحلة ص69

«وبسببِ علوِّ مرتبةِ الأمةِ الإسلاميةِ ، توجدُ في إحدى غرفِ القصرِ المذكور كتاباتٌ بالخطِّ العربيِّ ، حتّى إنَّ المرءَ إذا دقّقَ النظرَ في ما هو مكتوبٌ فوقَ إحدى الأبواب فإنه يقرأُ العبارةَ الجليلةَ : «لا غالبَ إلاَّ الله ولا إلهَ إلاَّ الله الملك الحقّ المبين ، محمدٌ رسولُ الله صادقُ الوعدِ المبين» وعندَ سُؤالنا أخبرونا أنَّ هذهِ الغرفةَ إنما أُنشئتْ تقليدًا لقصرِ الحمراء زمن ملوكِ المسلمين في الأندلس» .

الرحلة ص76

«كانت مدينةُ ميلان شمالَ إيطاليا وما حولها من توابع دولةِ النمسا تحتَ حكمِ الفرنسيين لوقتٍ طويلٍ زمنَ نابليون المشهور ، وكان أكثرُ أهاليها ميّالينَ إلى التَّحررِ من حكمهم ، ولذا فإنَّ دولةَ النمسا لا تثقُ كاملَ الثقةِ بأهالي المدينةِ المذكورةِ ، حتّى إنه توجدُ قوّةٌ عسكريّةٌ على جميع أطرافِ المدينةِ»

الرحلة ص76

«وفي مساءِ اليوم التالي نظّمَ الإمبراطورُ في قصره حفلًا راقصًا كبيرًا قوامه أربعة آلاف شخص من الذكور والإناث ، وقد عَمِدَ الإمبراطورُ والإمبراطورةُ وسائرُ أفرادِ الأسرةِ الحاكمةِ إلى إجراءِ مراسم السلامِ على سائرِ سُفراءِ الدولِ الصديقةِ والاستفسارِ عن أحوالهم ، وبعد ذلك عُزفتْ الموسيقى ورقصوا . وفي اليوم التالي زرنا المصانعَ والمدارسَ والمشافي والمكتبات والكنائس وسائرَ الأماكنِ الجميلةِ في تلك المدينةِ .» .

الرحلة ص80

استهلال

تأسست جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي سنة ٢٠٠٣ وتهدف إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات واليوميات ، وهو ميدان خطير ومهمل ، وقد تأسست الجائزة إيماناً من «المركز العربي للأدب الجغرافي -ارتياد الآفاق» «دار السويدي» بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حرّة في منح الجوائز ، وتكريساً لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري ، بما يؤدي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية ، وإخراجه إلى النور ، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان ، والسفر فيه ، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر ، من خلال أدب الرحلة بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي ، لم ينل اهتماماً يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات . مع التنويه بتزايد أهمية المشروع وجائزته في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشهدها العالم ، وتنعكس سلباً على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى ، فالأدب الجغرافي العربي (وضمناً الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن «الآخر» في مختلف الجغرافيات التي ارتادها رحالتهم وجغرافيوهم ودوّنوا انطباعاتهم وتصوراتهم الخاصة بهم عن الحضارة الإنسانية والاختلاف الحضاري حيثما حلّوا .

في دورتها هذه كما في دوراتها السابقة تواصل الجائزة التوقعات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي بصورة عامة ، من جهة ، وتشجيع الأدباء والكتاب العرب على تدوين يومياتهم المعاصرة في السفر ،

وحض الدارسين على الإسهام في تقديم أبحاث ودراسات رفيعة المستوى في أدب الرحلة .

***

مكتبة عربية لأدب الرحلة ، من كان يصدق؟ موسيقى لا تهدأ ، وصخب لا ينتهي ، وسطور الرحالة مدونات هي لوحات فنية مدهشة ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فياضة ، خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيات ، حدس شاعري وابتكار فني وجمال في التعبير ، خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة فيأتي بالممتع والمدهش . مرايا تتعاكس ، بلدان قريبة وبعيدة ، أماكن جديدة وزوايا لم تستكشف يرتادها عاشق مغامر كما يسري تحت جناح الليل للقاء الحبيبة . وهو لا يكتفي بعناقها والبوح بمكنونات قلبه وفكره إليها ، بل يستغرق في ملامحها ، يناجيها ويسعد باستجلاء خفاياها وكأنه يتأمل نفسه في مراياها . . . تلك هي الرحلة ، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير ، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها . هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المدن والأنهار والجبال ، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حية عابرة للزمان كما هي عابرة للمكان .

***

بدأنا برحلة ، وقلنا إننا سنختم معاً مائة رحلة ، أما وقد أصبحت الكتب بالمئات ودخل المشروع وجائزته في النصف الثاني من العقد الثاني فإنني لأحيي أولئك المغامرين القدامى من أبطال الرحلة ، فرسانا امتطوا صهوات الجياد ، واقتحموا غمار الموج ، سالكين دروب الدهشة والخطر ؛ وأتطلع بفرح غامر إلى هذه الكوكبة الجديدة من الرحالة المعاصرين ، الذين واكبوا مشروع «ارتياد الآفاق» وتألقوا في مسالكه . أطالع عشرات الأسماء والعناوين التي تزدان بها أغلفة الكتب ، وهي تنقلنا بين المدن والبلدان والقارات ، هؤلاء هم غواصو لآلئ الرحلة العربية ومبدعو أدبها الروائي الجميل . إنهم ثروة الأمة من الناظرين في كل جهات الأرض ، وسفراؤها إلى العالم ، العائدون بالرؤى والمعارف والخبرات ، أهل المشاهدة وأهل الحوار مع الآخر بصفته أنا أخرى وشريكا على هذا الكوكب .

في أسواق المدن وأكشاك المطارات والموانئ ومحطات القطار نمر بألوان من كتيبات

السياحة وصور المنتجعات وإعلانات الفنادق وشركات السفر . هذا شيء آخر غير أدب الرحلة ؛ واليوم ، فإن المكتبات الحديثة المنتشرة بين المدارس والجامعات والمراكز الثقافية لم يعد في مقدورها أن تستغني عن كنوز أدب الرحلة وروائعها ، بل أفردت لها رفوفا خاصة بها .

الرحلة ، كما آلت إليه ، سفر في الأرض وسفر في المخيلة ، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود .

***

تَهْدفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتِ أدبِ الرِّحلةِ ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولة لكتاب ورحَّالة عرب ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميَّاتهم وانطباعاتهم ، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب ، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرقِ ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً ، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستأثر بالأشياء ، والمتهيء لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم ، وتُمهِّدُ الرأي العام ، تالياً ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

***

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين ، عَبْرَ رسمِ صورِ دنيا لهم ، بواسطة مخيِّلةٍ جائعة إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ ، فإن أدبَ الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة ، ركّز ، أساساً ، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة ، وتطوّر العمران ، ومظاهر

العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساساً ، من بابِ طَلَبِ العلم ، واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا المنقلب ، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلِّع إلى المدنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسِّر على ماضيه التليد ، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة ، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها .

***

أخيراً ، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة أسست ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه ، البحثَ عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

***

ختاما ، أحيي رحالة من طراز آخر ، أولئك المثقفين المبدعين القائمين على مشروع ارتياد الآفاق والعاملين فيه والمتحلقين حوله من الباحثين الذين استكشفوا هذه المنطقة المطموسة والمغفلة من ثقافتنا العربية بقدرات المغامرين من العلماء ودأب المستكشفين ، فالتمسوا المخطوطات والنصوص النادرة في مكتبات العالم ورجعوا بها كما يرجع الغواصون باللآلئ ، وسهروا على فك رموزها وتحقيقها وإخراجها إلى النور ليكون لنا من وراء جهودهم المضيئة مكتبة متعاظمة من أدب الرحلة ما تزال عناوينها تتوالى وسلاسلها تتعدد ، ليكون في وسع ثقافتنا العربية أن تبرهن من خلال هذا اللون الممتع والخطير من الأدب.أنها ثقافة إنسانية فتحت نوافذها على ثقافات العالم وتجارب شعوبه ، ودون رحالتها مشاهداتهم وثائق أدبية وتاريخية ترقى إلى ما يربو على ألف من السنين ، فأنجزوا مع ريادتهم الآفاق ريادتهم في أدب السفر .

فهنيئا للقارئ العربي الجاد بهذه المكتبة الجديدة ، وللأجيال التي ستقرؤنا في مقبل الايام .

محمد أحمد السويدي

أبوظبي حزيران/يونيو ٢٠١٦

هذه الرحلة

استنادا إلى النص والدراسة التي وضعها محقق النص، فإن رحلة محمد صادق رفعت باشا تنتمي، من حيثُ إطارها الزَّمني، إلى ما يُعرف بعهدِ التنظيمات وقد تعددت الكتابات عن أوروبا حينها، وكان آخرها الرّحلة التي نحنُ بصددها، ويصنِّفها معظم الدارسين في خانة «السياحتنامه» وليس «السفارتنامه» باعتبار أن صاحبها لم يعيّن سفيرًا في إيطاليا بل في فيينا وذهب في مهمة قصيرة المدى إلى إيطاليا. وقد تميَّزَ عهدُ التنظيمات، الذي يؤطره المؤرخون بصدورِ مرسوم جولخانه سنةَ ١٨٣٩م وإلى حين إعلان الدستور العثماني الأول المعروف بالقانون الأساسي أواخر سنةَ ١٨٧٦م، بسعي الدّولة العثمانية الجاد إلى التغيير والاستفادة من منظومة القوانين الغربية في شتّى الميادين، فاستلهمت روحَ الحداثة الأوروبية آنذاك في مجال التجارة والإدارة والقضاء ونظام الضرائب والمساواة بين المواطنين وإزالة أشكال التمييز على أساس الدّين أو القوميّة، ورافقَ ذلك تحديثًا لمؤسسات الدّولة والتّخلّي عن النّظم العتيقة المستمدّة من الفكر التقليدي الإسلاميّ، وكان ذلك بمثابة مغامرة كبيرة وجرأة من طرفِ السلطات العثمانية لأنّ المسلم العثمانيّ كان يرى في تلك الأنظمة القديمة روحَ الشريعة وأن تغييرها يعني المساس بما هو مقدّس لديه. وقد كان محمد صادق رفعت باشا واحدًا من رجالات الدولة الإصلاحيين الذينَ وفّروا ذخيرةً أيديولوجية أعانت على استيعابِ أسباب التقدم الأوروبي وبالتالي محاولة الإفادة منه، ولهذا فإننا نجدُ تشابهًا بين أفكاره التي دوّنها حولَ أوروبا وبين المبادئ الواردة في مرسوم جولخانه.

أمّا من الناحية الأسلوبية فيتميزُ نصُّ الرّحلة بالإيجازِ والتناسق والسّلاسةِ والبعد عن التنميق وبديع الكلام، وهو في رأي الأديب التركيّ أحمد حمدي طانبينار «واحدٌ من النصوصَ الكلاسيكيّة البسيطة، وأجملُ ما فيه أنَّ كاتبه وصفَ

انطباعاته عن أوروبا ببساطة دونَ الانسياق وراء مشاعرِ الدَّهشة ، بل إنَّ السَّردَ والتصوير دومًا بسيطٌ» .

وقد

ويمكننا أن نتبيَّنَ من خلالِ الرحلة مدى وعي السفير بتاريخ البلادِ الأوروبية وظروفها السياسيّة ، فهو -على سبيل المثال- يعزو سببَ قيام دولة النمسا بحشدِ قوات عسكرية من المجريين والألمان على جميع أطراف مدينة ميلانو إلى عدم ثقة الدولة بأهل هذه المدينة ، وذلك لأنهم قاوموا الهيمنة الفرنسية زمنَ نابليون .

يستهلُّ الرّحالة محمد صادق رفعت باشا نصّه بذكرِ دواعي الرحلة إلى إيطاليا ؛ حيثُ إنّه دُعِيَ ، شأنه شأن سائر السفراء المقيمينَ في فيينّا ، لمرافقةِ الإمبراطور فيرديناند الأول في رحلةِ تتويجهِ في مملكة لومبارديا فينيتو (بالإيطاليّة : Regno Lombardo-Veneto) الخاضعةِ إلى الإمبراطوريّة النمساوية ، ويذكرُ الرَّحالةُ أنَّه استأذنَ من السلطات العثمانيّة لأجلِ المشاركةَ في هذه الرحلة فأُذنَ له .

ويأتي الرَّحالة على وصفِ المدنِ والقرى التي مرَّ بها أو نزل فيها ، كما يصف الحصون والقلاع والقصور والكنائس والبساتين ونحو ذلك من المظاهر العمرانية والحضرية .

ولقد بذل محقق الرحلة جهدا كبيرا في ترجمتها وتحقيقها ودراستها وفي تعليق هوامشها وحواشيها وشرح مصطلحاتها ، ببراعة وإتقان واحتراف ونال عن ذلك بجدارة جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات .

ارتياد الآفاق

المقدّمة

تطلقُ المصادرُ العثمانيّة على روما اسمَ قيزل إلما (K1z1lelma) أي التّفاحة الحمراء ، ولهذه التسمية حكايةٌ تحملُ الكثيرَ من الدلالات ، فتخبرنا كتبُ التاريخ أنَّ السلطانَ محمد الفاتح (١٤٤٤-١٤٨١م) بعدَ أن فتحَ القسطنطينيّةَ وجعلها عاصمةً للدولة كانت نفسهُ تتوقُ إلى فتح آخر يستكملُ به انتصاره على الشّرقِ والغرب ، وكان سقوطُ عاصمةِ الإمبراطوريّةِ الرومانيةِ الشرقيَّةِ في أيدي العثمانيين الصَّدمةَ الحقيقيّةَ التي نبَّهتِ العالمَ إلى هذه القوَّة الهائلة التي بدأت تفرضُ وجودَها بقوة على مسرحِ الحياةِ السّياسيّة نظرًا لأهميَّة الموقع الجغرافي للقسطنطينية في البحرِ الأبيضِ المتوسطِ وما يتصلُ بذلك من أبعاد اقتصاديّة وسياسيّة وأمنيّة أيضًا .

لقد جمعَ السلطانُ الفاتح رجالات الدولة حوله ذاتَ يوم ، وأمرَ بسجّادة عظيمة ، ثمَّ بسطها ووضعَ تفاحةً حمراءَ في وسطها ، ثمَّ التفتَ إلى أعيانِ الدّولة المجتمعين ، وخاطبهم : «من منكم يستطيعُ أن يلتقطَ التّفاحةَ دونَ أن يدوسَ السّجادةَ؟» وتفكّروا فيما بينهم ، ولمّا لم يستطعْ أيٌّ منهم أن يجدَ وسيلةً لذلك بادرَ الفاتحُ وأخذَ يطوي السجادةَ بكلتا يديه ويمشي حتّى بلغَ التفاحةَ فالتقطها ، وخاطبَ الحضورَ قائلًا : «إنَّ نقضَ مضاجعَ الكفّارِ شيئًا فشيئًا لهو خيرٌ من أن نغزوَ بلادَهم مرةً واحدةً» وعندئذٍ فَهِم المجتمعون الدَّرسَ ، وأدركوا أنَّ الطريقَ إلى روما لا يبدأُ من روما بالضّرورة ، بل يجبُ الوصولُ إليها باكتساحِ كلِّ ما يمكنُ أن يعترضَ الطريقَ المؤدي إلى «تفاحتهم الحمراء»[1] .

---

(١) تردُ هذه الحادثة في مذكراتِ شخصٍ يُدعى قُسطنطين ميخائيلوفيتش ، الذي خدمَ في صفوفِ الجيش الانكشاري خلال الأعوام ١٤٥٥م و١٤٦٣م ، وثمّة روايات مُتعدّدة حولَ أصل هذه التسمية في التراث المكتوبِ والشفهيّ ، إلاّ أن معظمها يتفقُ مع السياق الذي أوردناه . انظر : =

ومنذُ ذلك الحين كانت أفئدةُ العثمانيين تهوي إلى روما ، وترى في فتحها انتصارًا للإسلام في مشارقِ الأرضِ ومغاربها ، وإعلاءً لكلمةِ الله ، ولم يكن سقوطُ أوترانتو[1] في أيدي العثمانيين سنةَ ١٤٨٠م وحشدُ العساكرِ فيها إلا رغبةً في الوصول إلى قلبِ أوروبا المسيحيَّة ، ولكن شاءتِ الأقدارُ أن حانت منيَّةُ السلطانُ الفاتح فلم يُكتبُ لهم الاستمرارُ في مسعاهم .

من الواضح أنَّ الإيطاليين وبخاصة البنادقة لم يكونوا مغيَّبينَ عن أُمنياتِ آلِ عثمان وطموحاتهم التوسعيَّة ، بل لعلَّهم كانوا الأكثرَ تنبُّهًا وخشيةً من تقدمهم ، وفي هذا الصدد تكفي الإشارةُ إلى أنَّ السُّلطان محمد الفاتح نفسَه قد اغتيلَ على يدِ أحدِ أطبائه من عملاء البندقيّة ، الذي ادَّعى اعتناقَهُ الإسلامَ وتسمَّى باسم يعقوب باشا ، وقد سبقَ هذا الاغتيال خمس عشرة محاولة فاشلة رتبتها البندقيّةُ للخلاصِ منه[2] .

لقد حرصت السلطات العثمانيّة على الإلمام بأوضاعِ أوروبا الداخليَّة ، وكانت في كثيرٍ من الأحيان تستغلُّ الصّراعات والانقسامات في البيت الأوروبي لصالحها ،

Konstantin Mihailovic (1975), *Memoirs of a Janissary*, trans. Benjamin Stolz, Ann Arbor, = pp.145-147,

وللاستزادة حول هذه الروايات انظر :

Orhan Saik Gökyay, "Kızılelma", *Islâm Ansiklopedisi*, Ankara 2002, Cilt 25, S.559-561

وانظر، P. N. Boratav, "Kızıl-Elma" *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 5 (Leiden:: Brill, 1986), pp.245-246.

(١) تقعُ مدينة أوترانتو (Otranto) في إقليم بوليا (Puglia) في الجنوب الشرقي من إيطاليا وهي ميناء بحري قديم وحلقة وصل هامة مع اليونان ، وقديمًا شهدت المدينة نشاطًا تجاريًا لوقوعها على ممر أوترانتو الذي يصل البحر الأدرياتيكي بالبحر الأيوني . تعرضت أوترانتو للخراب حين سيطر عليها الأتراك سنة ١٤٨٠م ، وتشتهرُ المدينة اليوم بالزراعة وصيد الأسماك . انظر :

Otranto, *The Encyclopedia Americana*, 1989, 21/125.

(٢) يلماز أوزتونا ، **تاريخ الدولة العثمانية** ، ترجمة عدنان محمود سلمان ، ط١ ، مؤسسة فيصل للتمويل ، اسطنبول ، ١٩٨٨م ، ص : ١٧٧ .

وكان الإلمام بهذه الأوضاع أمرًا ضروريًا لرسم السياسات وتحديد العلاقات مع العالم الخارجي ، وقد اعتمدتِ الدولةُ العثمانيةُ لعهودٍ طويلةٍ من الزّمان على مصادرَ غير مباشرة للمعلومات ، وذلك بواسطةِ المرتدين المسيحيين ، والجنود الفارين من الجيوش الأوروبية والجواسيس العثمانيين والأوروبيين .

فلم يكن العثمانيُّ المسلم لعهودٍ طويلةٍ من الزمان يشغلُ نفسَهُ بتعلم اللغات الأوروبيّة ، ولمّا كان من الضروري التواصل مع الأجانب من خلال سفاراتهم في اسطنبول فقد كان ذلك يتمُّ بواسطةِ الترجمان ، وكان اختيار هؤلاء المترجمين عادةً من المسيحيين المحليين ، وقد كانت السفارات تُعينُ ترجمانًا ، كما كان لدى الحكومة العثمانية ترجمانها ، وكان يُطلقُ عليه تُرجمان الباب العالي ، وقد استمرت هذه الوظيفةُ أكثر من ثلاثة قرون ، وكان المترجمون عادةً من المسيحيين ، وأصبحت هذه الوظيفةُ خلالَ القرن الثامن عشر حكْرًا على مجموعةٍ صغيرةٍ من العائلات اليونانيّة المقيمة في حيّ الفنار في اسطنبول ، وبقي الأمر كذلك حتّى سنةَ ١٨٢١م حينَ صُرِفَ وأُعدِمَ آخرُ مترجم مسيحيّ واتخذتِ السلطاتُ العثمانيّةُ قرارَها بأن تُوكلَ مهمّة الترجمةِ إلى موظّفينَ مسلمين(١) .

وإذا كان المسلم العثماني لم يجدْ لعهودٍ طويلة ما يدفعه إلى تعلم لغات الأوروبيّين ، فإنه لم يكن مهتمًا أيضًا بالترحال إلى بلادهم ، ولعلَّ مردَّ ذلك هو وجهةُ النظر التقليديَّة في التصور الإسلامي والتي تتبنّى موقفًا سلبيًا من سفرِ المسلم إلى بلاد «الكفار» ، إضافةً إلى عوامل أخرى ترتبطُ بأنفةِ العثماني وحبّه الشديد لبلاده وشعوره بالتفوق على من سواه .

ولم تكن للدولةِ العثمانيَّة حتّى أواخر القرن الثامن عشر ، سفاراتٌ دائمةٌ في الخارج ، وكانت الدبلوماسيَّةُ العثمانيةُ تقتصرُ على مفاوضات في ظروف استثنائية

---

(١) انظر :

Lewis, Bernard (1961), *The Emergence of Modern Turkey* p.85-86 : وانظر ، Itzkowitz, Norman (1972), *Ottoman Empire and Islamic Tradition*, The University of Chicago Press, pp.104-105.

لتحقيق غاية محددة ، وكان السلطان ينتدبُ عدداً ممن يثق بهم من رجالات بلاطه ويزودهم بتعليماته وبكتابٍ رسمي ، وكانت هذه البعثة تعودُ إلى بلادها بعد انتهاء مهمتها وتطلعُ السلطانَ على نتائج هذه المفاوضات ، وينتهي الأمرُ عند هذا الحدِّ ، ولم يكن العثمانيون حتى القرن الثامن عشر يتفاوضون مع الدول الأخرى من منطلق تعامل الند للند ، بل كانت الدولة العثمانية تعتبرُ نفسها أرفعَ شأنًا وأعلى مقامًا من أي دولةٍ أخرى ، وأما حينَ تضعضعت الدولة ولانت شوكتها في العهودِ الأخيرة فقد اضطرت إلى اللجوء إلى الوسائل الدبلوماسية لتدعيم موقفها والحفاظ على كيانها ، وتشيرُ المصادرُ إلى أنَّ السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧م) كان أولَ من بادرَ إلى إقامة علاقات دائمة على الصعيد الدبلوماسي ، ففي مطلع سنة ١٧٩٣م أُنشئت سفارةٌ دائمةٌ في لندن ، وبعد ذلك ببضع سنين افتتحت سفاراتٌ أخرى في باريسَ وفيينا وبرلين ، لكن السلك الدبلوماسي لَم يكتمل بصورة فعلية إلا في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) حيثُ أنشأَ وزارة للشؤون الخارجية تمهيدًا لاعتماد سفراء دائمين لدى بعضِ الدول الأجنبية(٥) .

لقد كانت الإمبراطورية العثمانيَّة لعدَّةِ قرون من الزمان مصدرَ رعبٍ لأوروبا ، وكان العثمانيون ينظرون إلى العالم من حولهم نظرةً حربيةً ، وحينما ارتدّت الجيوش العثمانية عن أسوار فيينا أواخر القرن السابع عشر ، ومُنيت الدولة العثمانية بالهزائم السياسية والعسكرية في حروبها مع روسيا والنمسا مما اضطرَّها إلى توقيعِ معاهدةِ كارلوفتس(١)

---

(5) Quataert, Donald (2005), The Ottoman Empire 1700-1922, Cambridge University Press. pp. 77-83.

(٦) عُقدت معاهدة كارلوفتس (Carlowitz) أواخر يناير من عام ١٦٩٩م لتنتهي بذلك حالةُ العداء والحرب بين الإمبراطورية العثمانية من ناحيةٍ وتحالف الرابطة المقدسة (النمسا وبولندا والبندقية وروسيا) من ناحية أخرى ، وكانت المفاوضات قد بدأت منذ عام ١٦٩٨م في قرية كارلوفتس قرب بلغراد واستمرّت نحو سبعين يومًا ، وهذه أول مرةٍ يقبلُ فيها العثمانيون مفاوضةَ تحالف أوروبي ، وحصلت النمسا بموجب هذه المعاهدة على معظم المجر وحصل البنادقة على جزيرة مورة ومعظم دالماسيا ، وسيطرت بولندا على بودوليا (Podolia) ، واتفق الروس والأتراك على هدنةٍ لمدة عامين =

سنةَ ١٦٩٩م ومعاهدةِ بساروفتس[١] سنةَ ١٧١٨م بدأَ العثمانيون يُدركون حجمَ المسافة التي قطعها الغربُ في شتّى المجالات العلمية والعسكريّة ، وشهدَت الفترة الواقعة بين سنة ١٧١٨م وانتهاء حكم السلطان أحمد الثالث سنة ١٧٣٠م تحولًا كبيرًا في نظرةِ العثمانيين للغرب ، ويعتبرُ كثيرٌ من المؤرخين هذه الفترةَ مرحلة التجديد والحداثة الأولى في تركيا[٢] ، وتميّزت هذهِ السنوات -التي يطلقُ عليها المؤرخون اسمَ عهد التوليب لشدةِ هوسِ العثمانيين في استنبات هذه الزهرة- بشيوعِ مظاهر عمليّة للإفادة من المنجزِ الأوروبي والانفتاحِ على الآخر ، تمثّلت بإنشاء أول مطبعةٍ إسلامية في اسطنبول سنة ١٧٢٧م ، والاستعانة بالخبراء الأجانبِ وبخاصةٍ الفرنسيين في تحديثِ مؤسسات الدولة العسكرية ، والتأثُّر بطراز الفن الفرنسي في الزخارف ، حيثُ بدأ تداول تعبير الإفرنجيّ (Alla Franca) للإشارة إلى الطراز الفني والمعماري الفرنسيّ .

شقّتِ الأفكارُ الغربيّة منذُ عامِ ١٨٤٠م طريقها إلى الفكر العثمانيّ من خلال عدّةِ قنوات ، تمثّل أولاها في العامل اللغوي ، إذ أن معرفة أي لغة أوروبيّة ، وبخاصة الفرنسيّة قد فتحَ آفاقًا جديدة في الرؤية العثمانية للعالم ؛ ومن ناحيةٍ أخرى ، لعبت

= فقط لكنهم وقعوا في عام ١٧٠٠م معاهدة القسطنطينية التي حصلت روسيا بموجبها على آزوف . للاستزادة انظر :

Stanford Shaw (1976), *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, Cambridge University Press. Vol.1, pp. 223-225.

(١) عقدت معاهدة بَـارُوفِتْس بين الدولة العثمانية وكل من النمسا والبندقية في يوليو ١٧١٨م بعد مضي ثلاث سنوات على الحرب بين الطرفين ، وقد انتزعت النّمسا بموجبها بلغراد وسمندريا وأراضي أخرى منها مساحات كبيرة من الصرب ، كما نصت المعاهدة على أن يستعيد رجال الدين الكاثوليك مزاياهم القديمة في الدولة العثمانية ، انظر : المحامي : **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ، ص : ١٤٥ ، وانظر : أحمد عبدالرحمن مصطفى ، **أصول التاريخ العثماني** ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص : ١٥٦ .

(2) Göçek, Fatma Müge (1987), *East Encounters West, France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century*, New York, Oxford University Press, p. 9.

العلاقات التي كان يقيمها صناعُ القرارِ ورجالات الدولة العثمانية مع الأجانب والأقليات غير المسلمة سواء في اسطنبول أو الولايات الأخرى مثل إزمير وتسالونيك وبيروت دورًا في ولوج هذه الأفكار، وبالإضافة إلى ما سبق كانت الإقامةُ في إحدى الدول الأوربية لفترة طويلةٍ من الزمن عاملًا مهمًا في استيعابِ الأفكار الغربيّة، وقد كان العثمانيُّ يقيمُ في أوروبا إما متوليًا لمهام دبلوماسيّة، وهو ما بدأ منذ أواخر القرن الثامن عشر، أو طالبَ علم، وهو ما كان سائدًا منذ عام ١٨٦٠م، أو معارضًا منفيًا، وهو ما ظهر بعدَ عام ١٨٦٠م أو رحَّالةً، وهو ما بدأ منذ عام ١٨٩٠م(١).

وحينما وجدت الإمبراطوريةُ العثمانية نفسها معنيَّةً بصراع البقاء أمام هيمنة أوروبا وتوسعها، فإن المناصبَ الهامةَ في الدولة كانت تُوكل لأولئك الذين كانت لديهم معرفة ما بأوروبا، سواء لغاتها أو أحوالها، ولهذا فإنَّ النخبةَ الجديدةَ في الدولة لم تأتِ من المؤسسة العسكرية أو الدينية كما هو الحال في السّابق، بل كان مصدرُ هذه النخبة مكتب الترجمة (ترجمة أوضاسي) وموظّفي السفارات(٢).

يبدو أنَّ من أكبرِ العوائق التي حالتْ دونَ تقدُّم الدولة العثمانية وإفادتها من مُنجزاتِ الحضارة الإنسانية، وبخاصة المُنجز الأوروبي، يتمثّلُ في معارضةِ المؤسسة الدينيّة ووقوفها في وجه الحداثةِ والتّجديد، خاصةً حين لا يكون مصدره إسلاميًا، إذ أقحمتِ الإسلامَ بعقيدته الثّابتة في السياسةِ بأحوالها المتقلّبة، فأفسدتِ الدِّينَ وأفسدتِ السياسةَ، ولعلّ من المفيد هنا أن نشيرَ إلى الخطابِ الذي ألقاه مؤسس تركيا الحديثة مصطفى كمال أتاتورك في أنقرة في الخامس من نوفمبر عام ١٩٢٥م حيثُ أشارَ إلى «أنَّ القوّة التي جعلت تركيا تتحدّى العالم أجمعه وتجعل اسطنبول في أيدي الشعب التركي إلى الأبد كانت أضعف من أن تتغلّبَ على المقاومة المشؤومة التي أبداها الفقهاءُ ضدَّ دخولِ المطبعة إلى تركيا والتي اختُرعتْ في ذلك الوقت تقريبًا، بل تطلّبَ الأمرُ ثلاثةَ قرون أخرى من المراقبة والتردد، ومن الجهود

(1) H.E. Allen (1935), *The Turkish Transformation: a Study in Social and Religious Development*, p .1.

(2) Lewis, Bernard, *The Emergence of Modern Turkey*, p. 116.

والطاقات المؤيدة والمناهضة ، قبل أن تسمح القوانينُ العتيقةُ ومناصروها بدخول الطباعة إلى بلادنا»[١] .

إنَّ البحثَ في تراث الرّحلات العثمانيَّة هو -في تقديري- تتبُّعٌ لآثار الهزيمة ، هزيمة حضارة بأكملها لم تلتفت إلى الآخر كما ينبغي ولم تنتفعْ منه كما يجب ، واستمرت لفترات طويلة من الزمان منغلقةً على نفسها رافضةً التجديد والإبداع ، محاربةً من يسعى إلى إعمالِ العقل ، وفي غفلة من الزمان أدهشتها الأمم الأخرى ، فأخذت في تقليدها على استحياء أولَ الأمر ثمَّ اضطرت إلى التخلّي عن غرورها محاولةً اللحاق بركبِ التقدم . إن هذه الهزيمة الحضاريَّة هي التي يُعبِّرُ عنها الشَّاعر العثماني ضياء باشا (١٨٢٥-١٨٨٠م) في قصيدةٍ كتبها في جنيف يقول في أحدِ أبياتها :

زرتُ بلادَ الكُفر فرأيتُ المدنَ والقصورَ
وطفتُ ممالكَ الإسلام فرأيتُ الخرابَ أكمله![٢]

كما يلجأُ أحدُ رجالات الدولة العثمانيّة هو محمد جلبي أفندي يكرمي سكيزنجي (ت . ١١٤٥هـ/١٧٣٢م) إلى الدّين بحثًا عن العزاء ، ورغبةً في طمأنة النفس التي تسلَّلَ إليها الشكُّ والقلق واعتملتْ فيها مشاعرُ الخيبة والفشل ، فعندَ إقامته في باريس سفيرًا للدولة العثمانية لدى فرنسا خلال العام ١٧٢٠-١٧٢١م أدهشه ما وصلَ إليه القوم من تقدّم في علوم الطب والفلك والهندسة والصناعات المختلفة وطباعة الكتب ورسم الخرائط العسكريَّة وفن العمارة وتصميم الحدائق

---

(١) انظر :

Lewis, Bernard, *The Emergence of Modern Turkey*, p. 268

مترجمًا عن : Kemal Atatürk, *Milli Egtim Söyleveleri*, Ankara I, 29-30.

(٢) انظر :

Kenan Akyüz (1985), *Batı Tesirinde Türk Siiri Antolojisi*, Istanbul, Inkila Kitabevi, s.40.

وللاستزادة حولَ ضياء باشا وشعره راجع :

J.W. Gibb (1907), *A History of Ottoman Poetry*, vol. 5, pp. 40-111.

والقصور والنوافير ونحو ذلك من معالم الرُّقي الثقافي والحضري فعبّرَ عن دهشته بعاطفة دينيّة قائلًا : «فتحققتُ أنَّ الدُّنيا سجنُ المؤمنين وجنَّةُ الكافرين»[1] ، وهذا ، كما هو معلوم ، هو مظهرٌ من مظاهرِ الخنوع والتسليم للأقدار ، وتسريحِ النفسِ في فضاء الخيالات البريئة والأحلام الساذجة في انتظار «نصرٍ من الله» أو تعويضٍ في الآخرة عن عذابات الدنيا!

ولا يزالُ هناك من يحيا في زمن السيفِ والنشابِ ويتناولُ التاريخَ مُعملًا عاطفته الدينيّة ، وبهذا يُنظَرُ إلى رجالات الإصلاح العثماني الذين انفتحوا على ثقافات الآخرين وحاولوا إنقاذ بلادهم بقوة العلم وسلطان العقل بغيةَ الفرارِ من شبحِ التردّي والتخلفِ وإنْ بعدَ أن «لاتَ حينَ مناص» ، يُنظرُ إلى هؤلاء على أنهم عملاء للغرب ومتآمرين على الإسلام ، بل ولم يسلموا -كما هو الحال اليوم- من الاتهامات السَّاذجة بالمروق عن الدين والخروج عن الملة . ولعلَّ من بواعثِ الأسى اليوم أن نجدَ الأمرَ نفسه يتكررُ في البلادِ العربيّة ؛ فالمُستنيرونَ الداعونَ إلى الحرية والانفتاح على الآخر والاستفادةِ من منجزاتِ الأمم المتقدمةِ متهمون بتنفيذ أجنداتِ الغرب لبثّ السموم في جسدِ الأمة وتقويضِ بنيانها ، والغربُ لا يأبهُ لهذا كلّه ويسعى إلى الأمام ، وإذا لم نتخلّصْ من هذه الأفكارِ العدائيّة ضدَّ الآخر ، وإذا لم نتوقفْ عن التباكي على أطلالِ أمجاد بعضها كان وبعضها لم يكن ، فسنستمرُّ في «ردَّتنا الحضاريّة» إلى مراحلَ ستدهشُ العالمَ حتمًا ، وعندئذٍ سيغدو لحاقُنا بركبِ الأممِ المتقدمة ضربًا من الخرافة .

---

(١) انظر : يكرمي سكز ، محمد جلبي أفندي ، سفر إلى فرنسا ، تحقيق ودراسة : زيد عيد الرواضية ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، ٢٠١٤م ، ص : ١٣٧ .

مؤلِّفُ الرحلةِ

وُلِدَ محمد صادق رفعت باشا في اسطنبول في الثامن والعشرين من أكتوبر سنةَ ١٨٠٧م ، وذلك قبلَ عام واحد من تولي السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) العرشَ ، وكان الابنَ الوحيدَ لعائلة ثريَّة ، كان أبوه حجّي علي بك[١] ناظرَ الطوبخانه[٢] ، وقد وفَّرت له بيئته التي نشأ فيها التعليمَ الابتدائي اللازم خاصةً في اللغات العربية والفارسية وعلوم القرآن[٣] .

تلقَّى محمد صادق رفعت باشا تعليمه في مدارس القصر السلطاني ، وعملَ سنةَ ١٨٢١م في غرفةِ الخزنة الداخليّة ، ثم انتقلَ بعد ذلك ليشغلَ وظيفةً إداريةً في المكتوبي قلمي التابع لمكتبِ الصدر الأعظم ، ورقي سنةَ ١٨٢٤م ليصبحَ في رتبةِ

---

(١) لمزيد التوسع حولَ حياته ، انظر :

Mehmed Sureyya (1311), *Sicill-I Osmani III*, Istanbul, pp. 564-565.

(٢) طوبخانه (Tophane) : هو مصنع الأسلحة ، أو دار المدفعية العثمانيّة ، تمَّ إنشاؤه أواسط القرن الخامس عشر في عهدِ السلطان محمد الفاتح ، وجرى توسيعه زمن السلطان بايزيد الثاني . ويتبعُ مبنى الطوبخانه اليوم لجامعة معمار سنان للفنون الجميلة ، ويُسمّى الحي حيثُ يقع المبنى باسم طوبخانة . للاستزادة راجع :

Salim Ayduz, "Tophane", *Islâm Ansiklopedisi*, Istanbul 2012, Cilt 41, S.253-256.

(3) Ahmed Güner Sayar, *The Intellectual Career of an Ottoman Statesman: Sadık Rifat Pascha (1806-1858) and his Economic Ideas*, IÜ. Siyasal Bilgiler Fakültesi Dergisi No: 16-17-18-19 (Ocak-Temmuz 1997. Ocak-Temmuz 1998) p. 76.

خواجا ، وأصبحَ بعد ذلك بأربعةِ أعوام في منصبِ عميدي قلمي[١] .

لفت محمد صادق رفعت باشا انتباه السلطان محمود الثاني وذلك حينَ مرافقته له في زيارته إلى أدرنه وغاليبولي ، وأصبحَ في رتبةِ ضابط كاتبي في المفاوضات بشأنِ الحدود مع اليونان وكذلك في المفاوضات المتعلقة بالمسألة المصرية . وفي الثامن والعشرين من يناير سنة ١٨٣٣م تولّى مهمة محاسبية الأوقاف الصغيرة ، وفي يونيو من سنةِ ١٨٣٤م تولى محمد صادق رفعت باشا منصب عميدي وكيلى خلفًا لمصطفى رشيد الذي كان قد أُرسِلَ سفيرًا إلى باريسَ ، وخلال هذه الفترة أصبحَ مُقرّبًا من دائرةِ كبارِ رجالاتِ الدولة من أمثال بيرتو باشا (Pertev Pasa) حيثُ تقرّبَ إليه محمد صادق رفعت باشا وأصبحَ «محرم–ى اسرارى» له . وفي أواخر سنةِ ١٨٣٦م عُيّنَ مصطفى رشيد مستشارًا للخارجيّة وعلى إثرِ ذلك أصبحَ محمد صادق رفعت باشا في منصب عميدى ، إلاّ أنَّ الحظَّ لم يحالفه طويلًا ، إذ لم يعُدْ حاميه بيرتو باشا مَرْضيًا عنه لدى السلطات العثمانية ، فنُفِي إلى أدرنه وعُيِّنَ مكانه خصمه عاكف باشا ، وبهذا بدأت فترة عسيرة بالنسبةِ إلى محمد صادق رفعت باشا[٢] ؛ فقد اكتشفَ عاكف باشا أنَّ كثيرًا من الشكاوى الموجَّهة ضدَّه من القصر كانت بقلم محمد صادق رفعت باشا[٣] ، كما لاحظَ أنّه قامَ بتحوير كثيرٍ من الإجراءات إبّانَ

---

(1) E. J. Zürcher, "Sadık Rifat Pasha", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 8 (Leiden: Brill, 1994), p. 726.

(2) Ali Akyıldız, Ali Akyıldız, "Sâdık Rifat Pasa", *Islâm Ansiklopedisi*, Istanbul 2008, Cilt 35, S.400.

(٣) انظر :

Serif Mardin (1962), *The Genesis of Young Ottoman Thought: A Study in The Modernization of Turkish Political Ideas*, Princeton University Press, Princeton, p. 176

نقلا عن : Ali Fuad (1929), "*Rical-i Tanzimattan Sadık Rifat Pasa*", Türk Tarihi Encümeni Mecmuası, I, p. 2.

اضطلاعه بمنصب عميدى، وعلى إثر ذلك صُرِفَ من منصبه[١]، ثمَّ عُيِّنَ سنة ١٨٣٧م سفيرًا للدولةِ العثمانيّة في فيينا بُغيةَ إبعاده عن اسطنبول[٢].

وفي أثناءِ أدائه مهمّة السّفارة في فيينا جمعتهُ علاقةُ صداقةٍ مع الأمير النمساوي مترينيش (Metternich)، إلاَّ أنَّه بدا في نظرِ المستشرق النمساوي جوزيف فون همر-برجشتال (Joseph von Hammer-Purgstall) مبتدئًا في فنِّ الدبلوماسيّة[٣].

دوَّنَ السفير محمد صادق رفعت باشا خلال إقامته في فيينا مذكّراتٍ عن أحوال أوروبا أشارَ فيها إلى أهمية الأمنِ على الحياةِ والممتلكات، وضرورة اتباعِ الإجراءات البيروقراطية الحكيمة، ولفتَ إلى أهمية التجارةِ والصناعة. لقد كان السفيرُ العثماني يرى أنَّ تسامحَ الدولة مع المنخرطين في التجارة يجب أن ينتهي، وأن الإنتاجيَّة يجب أن تكون في محورِ اهتمام الحكومة، وقد كانت هذه الأفكار مشابهةً للبنودِ الواردة في معاهدةِ التجارة البريطانية العثمانية المعروفة بمعاهدة بالطة ليمان سنةَ ١٨٣٨م وكذلك مرسوم جولخانة الصادر في عهدِ التنظيمات سنةَ ١٨٣٩م[٤].

---

(1) Serif Mardin, *The Genesis of Young Ottoman Thought*, p. 176.

(2) Ali Akyıldız, Ali Akyıldız, "Sâdık Rifat Pasa", *Islâm Ansiklopedisi*, Istanbul 2008, Cilt 35, s.400.

(٣) انظر:

E. J. Zürcher, Sadık Rifat Pasha , *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 8 (Leiden: Brill, 1994), p. 726 : وانظر، Carter V. Findley (1980), *Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire: The Sublime Porte*, 1789-1922, Princeton University press. pp. 137-138.

(٤) انظر:

E. J. Zürcher, "Sadık Rifat Pasha", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 8 (Leiden: Brill, 1994), p. 726

وميثاق جولخانه أو خط جولخانه الشريف وهو مرسوم أمر به السلطان محمود الثاني قبل وفاته =

وبعدَ تولّي السلطان عبدالمجيد الأول (١٨٣٩-١٨٦١م) العرشَ أصبحَ محمد صادق رفعت باشا مستشارًا لنظارة الخارجيّة وذلك في أكتوبر من عام ١٨٣٩م . وفي أوائل شهر يناير أوكلت إليه مهمّة السفر إلى مصر بُغيةَ إعلام محمد علي باشا بنتائج مؤتمر لندن حول المسألة المصريّة ، فسافرَ إليها في أغسطس من سنة ١٨٤٠م ، وبالرَّغم من أنه لم ينجح في إقناع محمد علي باشا إلا أنه عُينَ بعدَ وقتٍ قصير مستشارًا في مكتبِ الصدر الأعظم[1] .

وفي سنةِ ١٨٤١م حصلَ على لقب الباشويّة ورُقّيَ إلى رتبةِ وزير ، وشغلَ وظيفة مستشار لنظارة الخارجية مدة تسعة أشهر ، وفي السنةِ نفسها أصبحَ عضوًا في المجلس العالي للأحكام العدلية الذي كان بمثابةِ الهيئة الاستشارية لما عُرِفَ بعهدِ التنظيمات . وبعدَ فترة قصيرة -تولى خلالها مهمّة سفير في فيينا للمرة الثانية سنة ١٨٤٢م ، تبعتها عودته إلى وظيفة مستشار في نظارة الخارجيّة- عادَ مرةً أخرى إلى المجلس العالي وأصبحَ رئيسًا له وذلك سنةَ ١٨٤٥م ، وتولّى رئاسته ثلاث مراتٍ أخرى في الأعوام ١٨٤٨-١٨٤٩م و١٨٥٠م و١٨٥٣-١٨٥٤م ، ثمَّ انضمَّ إلى المجلسِ العالي للتنظيمات الذي تشكّلَ حديثًا آنَذاك . وخلال ذلك شغلَ محمد صادق رفعت باشا منصب وزير المالية لمدةِ ثلاثة أشهر سنة ١٨٤٨م ووزير دولة لثلاثة أشهر سنةَ ١٨٥٠م .

= وأوكلَ مهمة إعداده إلى مصطفى رشيد باشا ، وقد تم إعداد المرسوم وإعلانه رسميًا في الثالث من نوفمبر سنة ١٨٣٩م بعدَ أشهر من اعتلاء السلطان عبدالمجيد العرشَ ، وقد تمت تلاوة نص المرسوم أمام الشخصيات الدينية ومسؤولي الأنشطة الاقتصادية والقيادات الدبلوماسية ، ويمتاز هذا الميثاق بتعدد سماته ؛ فهو ميثاق حقوقي ومالي وإداري وعسكري ، ومن أهم بنوده أن جميع رعايا الإمبراطورية العثمانية متساوون منذ تلك اللحظة دون تمييز على أساس الدين أو القومية ، وأن كل فرد يمثل أمام القضاء سوف يحاكم وفقًا للقانون المعمول به ولن يحاكم ويحكم عليه دون استئناف ودون تحقيق كما كان يحدث في السابق ، وأن كل فرد سيدفعُ ضرائب تتناسب مع ثروته ودخله . انظر : روبير مانتران ، «بدايات المسألة الشرقية ١٧٧٤-١٨٣٩م» ، تاريخ الدولة العثمانية ، روبير مانتران (إشراف) ، ترجمة بشير السباعي ، ج٢ ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص : ٦٠ .

(1) Ali Akyıldız, "Sâdık Rifat Pasa", *Islâm Ansiklopedisi*, Istanbul 2008, Cilt 35, S.400.

لقد كان محمد صادق رفعت باشا على صلة وثيقة برشيد باشا وكان ضمن دائرة الإصلاحيين خلال العقد الثالث والرابع والخامس من القرن التاسع عشر، كما أنه كان مناصرًا شديدًا لعَلمَنَةِ النظامين القضائي والتعليمي(١) .

توفّي محمد صادق رفعت باشا في الثاني عشر من فبراير سنةَ ١٨٥٧م، ودُفِنَ في ناحيةِ أيوب في اسطنبول، وكانَ أديبًا معروفًا بذكائهِ وكاتبًا ماهرًا، وعُرِفَ عنهُ الكرمُ والنزاهةُ وسرعةُ البديهةِ وحسنُ المعشرِ(٢) .

---

(1) E. J. Zürcher, "Sadık Rifat Pasha", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 8 (Leiden: Brill, 1994), p. 726.

(٢) انظر:

Ali Akyıldız, "Sâdık Rifat Pasa", *Islâm Ansiklopedisi*, Istanbul 2008, Cilt 35, S.401

وانظر:

Unat, Faik Resit, *Osmanlı Sefirleri ve Sefaretnâmeleri*, Yayımlayan: Bekir Sıtkı Baykal, Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara, 1968, p. 215-216.

التعريف بالرحلة

يستهلُّ الرّحالة محمد صادق رفعت باشا نصّه بذكرِ دواعي الرحلة إلى إيطاليا ؛ حيثُ إنّه دُعِيَ ، شأنه شأن سائر السفراء المقيمينَ في فيينّا ، لمرافقةِ الإمبراطور فيرديناند الأول في رحلةِ تتويجهِ في مملكة لومباردیا فينيتو (بالإيطاليّة : Regno Lombardo-Veneto) الخاضعة إلى الإمبراطوريّة النمساوية ، ويذكرُ الرَّحالةُ أنَّه استأذنَ من السلطات العثمانيّة لأجلِ المشاركةَ في هذه الرحلة فأُذنَ له[١] .

ويأتي الرَّحالة على وصفِ المدنِ والقرى التي مرَّ بها أو نزل فيها ، كما يصف الحصون والقلاع والقصور والكنائس والبساتين ونحو ذلك من المظاهر العمرانية والحضرية . وإن كانت الرّحلة عمومًا تمتاز بالإيجازِ إلاّ أن الرَّحالة يسهبُ أحيانًا ، ويعمدُ إلى الاقتضاب الشّديد أخرى ، وذلك ربّما وفقَ ما يقدِّره من أهمية للمواضع التي يأتي على ذكرها ؛ ففي معرضِ الكلام عن مدينة ميونخ يذكر السَّفيرُ أنها مدينة جميلة ، فيها نهر سريع الجريان ، وطرقها حديثة وواسعة ، ويأتي على ذكر عمرانها وما يجري فيها من توسيع ، ويحصي عددَ سكانها وعدد الجيوش الموجودة فيها ، ويصفُ مناخها مشيرًا إلى أن شتاءها شديد البرودة ، ويُلاحِظُ أنه لم يتم إرسال أي سفير أو موظف من قبلِ الدولة العثمانية إلى تلك النواحي ، بل إنه لم يسبق أن جاء إليها أيٌّ من عامة المسلمين ، وهذا ما يُفسرُ -من وجهةِ نظر الرَّحالة- حسنَ الاستقبال الذي حظي به حينَ وصوله . وأما في معرض حديثه عن مدينة بريتشا (Brescia) فإن الرَّحالة يكتفي بذكر معلومات مقتضبة جدًا ، إذ يشيرُ إلى أنها «مدينة كبيرة ومعمورة ، وفيها كنيسة رحبة مكسوة بالمرمر الخالص ، كما توجدُ فيها سائر القصور الفخمة»[٢] .

---

(١) الورقة ١ .

(٢) الورقة ١٧ .

ولا تغيبُ عن هذه الرحلة مشاعر الحنين للوطن ؛ فحينَ وصلَ محمد صادق رفعت باشا إلى مدينةِ سان جانو (Sangiano) ورأى مصايفها هزَّهُ الشوقُ وعَبَرتْ في مخيلته البيوتُ الساحلية على ضفافِ البوسفور[١] .

ويعبرُ الرَّحالةُ عن مشاعرِ الحبِّ والفخر تجاه بلاده ؛ فعندَ زيارته لأحدِ القصور قربَ مدينة مونسا (Monza) أدهشهُ ما رأى من عجائب الأزهار وغرائب الأشجار التي جُلِبتْ من أصقاعِ الأرض وزُرِعتْ داخلَ أقفاص خاصّة ، إلاّ أنّه يحمدُ الله على عنايته الموصولة لأن العنبَ الوفير في اسطنبول ليسَ له مثيل «لأن هواءها وماءها وموقعها خيرٌ من كافة أقاليم وممالك الدنيا»[٢] .

ويلاحظُ أنَّ الرّحالةَ يتوقّفُ عندَ المشاهداتِ التي تمتُّ بصلةٍ للدولةِ العثمانيّة أو إلى المسلمين عمومًا ؛ فعندَ مروره بمدينةِ مونسا (Monza) يأتي على ذكرِ مكتبة عظيمة فيها الكثير من الكتب الإسلامية ، منها القرآن الكريم وتفسير البيضاوي ، إضافة إلى رسائل من طرفِ السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢م) أُرسلتْ للبابا بخصوص الأمير جم . كما يخبرنا في مروره بمدينةِ كومو (Como) عن دارةٍ قديمةٍ وكبيرة رأى فيها رسمًا للسلطان سليمان القانوني أول تولّيه العرشَ ، ورسومات أخرى للصدر الأعظم سنان باشا فاتح اليمن وقابودان البحر خيرالدين باشا وأمراء مصر فائق بك والغوري وطومان بك ، كما يُلاحظُ وجودَ كتابات عربية على باب أحد القصور ويذكرُ أنَّ هذا يدلُّ على علوّ مرتبةِ الأمة الإسلامية[٣] .

وقلما يتوقفُ الرَّحالة عندَ مظاهر الحياة الاجتماعية في البلاد الإيطالية ، ولعلَّ مردَّ ذلك أن محمد صادق رفعت باشا -على خلاف من سبقه من الرَّحالة العثمانيين الأوائل- لم تعتملْ لديه مشاعرُ الدهشة من عادات تلك الشعوب وطرائقها ؛ فهو مقيمٌ بينَ ظهرانيهم (في فيينا) وبالتالي فلا يوجدُ ما يدعو للدهشة التي عادةً ما يُفرِزُها اللقاءُ الأول بالمجتمعِ الأوروبي .

---

(١) الورقة ١٨ .

(٢) الورقة ٢٠ .

(٣) الورقة ٢٠ و٢١ .

ويمكننا أن نتبيَّنَ من خلالِ الرحلة مدى وعي السفير بتاريخ البلادِ الأوروبية وظروفها السياسيّة ، فهو -على سبيل المثال- يعزو سببَ قيام دولة النمسا بحشدِ قوات عسكرية من المجريين والألمان على جميع أطراف مدينة ميلانو إلى عدم ثقة الدولة بأهل هذه المدينة ، وذلك لأنهم قاوموا الهيَمنة الفرنسية زمنَ نابليون[١] .

وتنتمي رحلة محمد صادق رفعت باشا من حيثُ إطارها الزَّمني إلى ما يُعرف بعهدِ التنظيمات وقد تعددت الكتابات عن أوروبا حينها ، وكان آخرها الرّحلة التي نحنُ بصددها ، ويصنِّفها معظم الدارسين في خانة «السياحتنامه» وليس «السفارتنامه» باعتبار أن صاحبها لم يعيّن سفيرًا في إيطاليا بل في فيينا وذهب في مهمة قصيرة المدى إلى إيطاليا[٢] . وقد تميَّزَ عهدُ التنظيمات ، الذي يؤطره المؤرخون بصدورِ مرسوم جولخانه سنةَ ١٨٣٩م وإلى حين إعلان الدستور العثماني الأول المعروف بالقانون الأساسي أواخر سنةَ ١٨٧٦م ، بسعي الدّولة العثمانية الجاد إلى التغيير والاستفادة من منظومة القوانين الغربية في شتّى الميادين ، فاستلهمت روحَ الحداثة الأوروبية آنذاك في مجال التجارة والإدارة والقضاء ونظام الضرائب والمساواة بين المواطنين وإزالة أشكال التمييز على أساس الدّين أو القوميّة ، ورافقَ ذلك تحديثًا لمؤسسات الدَّولة والتَّخلّي عن النّظم العتيقة المستمدَّة من الفكر التقليدي الإسلاميّ ، وكان ذلك بمثابة مغامرة كبيرة وجرأة من طرفِ السلطات العثمانية لأنّ المسلم العثمانيّ كان يرى في تلك الأنظمة القديمة روحَ الشريعة وأن تغييرها يعني المساس بما هو مقدّس لديه . وقد كان محمد صادق رفعت باشا واحدًا من رجالات الدولة الإصلاحيين الذينَ وفَّروا ذخيرةً أيديولوجية أعانت على استيعابِ أسباب التقدم الأوروبي وبالتالي محاولة الإفادة منه ، ولهذا فإننا نجدُ تشابهًا بين أفكاره التي دوَّنها حولَ أوروبا وبين المبادئ الواردة في مرسوم جولخانه .

---

(١) الورقة ٢١ .

(٢) بنحادة ، عبدالرحيم «بين الرحلة السفاريّة والتقرير الدبلوماسي : السفارتنامه العثمانية» ، التاريخ والدبلوماسيّة ، قضايا المصطلح والمنهج ، تنسيق عبدالمجيد القدّوري ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة ، الرباط ، ٢٠٠٣م ، ص : ١٠٦-١٢٤ .

أمّا من الناحية الأسلوبية فيتميزُ نصُّ الرّحلة بالإيجازِ والتناسق والسَّلاسةِ والبعد عن التنميق وبديع الكلامِ ، وهو في رأي الأديب التركيّ أحمد حمدي طانبينار «واحدٌ من النصوصَ الكلاسيكيّة البسيطة [...] ، وأجملُ ما فيه أنَّ كاتبه وصفَ انطباعاته عن أوروبا ببساطة دونَ الانسياق وراء مشاعرِ الدَّهشة ، بل إنَّ السَّردَ والتصوير دومًا بسيطٌ»[1] .

(1) Ahmet Hamdi Tanpinar (2012), *On Dokuzuncu Asır Türk Edebiyatı Tarihi, Dergâh Yayınları*, 19. Baskı, Istanbul, p. 133.

السياحتنامه والسفارتنامه العثمانية

يشكّلُ تراثُ الرحلات العثمانيّة مادةً علميَّةً غنيةً لا يمكن الاستغناءُ عنها في دراسةِ تاريخ العثمانيين وتتبُّع توسعهم الجغرافيّ ونظرتهم إلى العالم من حولهم، إذ أنَّها تقدمُ معلوماتٍ قد لا تتوَفَّرُ في المصادرِ التاريخيَّة المباشرة، وذلك لما يتمتَّعُ به الرَّحالةُ عادةً من عفويَّةٍ في سردِ الأحداث، ورغبةٍ في تدوينِ ما يستثيرهُ من أحوال الناسِ وعاداتهم وطرقِ عيشهم، وتوصيف العمرانِ والقلاعِ والحصون، والتأريخِ للأمم والشعوب، وغير ذلك مما يستوقف الرَّحالةَ فيدوّنه رغبةً في جذبِ أكبرِ شريحةٍ ممكنةٍ من القرّاء.

ويُطلقُ على كُتبِ الرحلات العثمانية اسمَ سياحتنامه (Seyâhatnâme) أي كتبُ السياحات[1]، ولعلَّ أقدم هذه الرحلات هو كتاب «**عجائبُ اللطائف في أخبار وسياحات ملوك هرات**» الذي ألّفه الخواجة غيّاثُ الدين النقاش حوالي سنة ١٤٢٢م[2] وترجمه شيخُ الإسلام إسماعيل عاصم أفندي (١٦٨٥-١٧٦٠م) وذلك بطلبٍ من الصدر الأعظم آنذاك إبراهيم داماد باشا سنةَ ١٧٢٧م، وأطلق على المخطوطة اسم «**ختاي سياحتنامه سي**»، ويضمُّ الكتابُ ما دونه الخواجة غياث الدين

---

(١) يُقسّمُ محمد الفاسي الرحلات إلى خمسةَ عشر نوعًا هي: الرحلات الحجازيّة والسياحية والرسمية والدراسية والأثرية والاكتشافية والزياريّة والسياسية والعلميّة والمقاميّة والدليليّة والخياليّة والفهرسيّة والسفاريّة والعامّة. انظر: **الإكسير في فكاك الأسير** (مقدمة الكتاب)، محمد بن عثمان المكناسي، حقّقهُ وعلّق عليه محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٥م.

(2) Bâki Asiltürk (2009), *Edebiyatın Kaynagı Olarak Seyahatnameler*, Turkish Studies, International Periodical for the Languages, literature and History of Turkish or Turkic, Vol. 4. /1-I, Winter 2009.

النقاش الذي توجّهَ في رحلة إلى آسيا الوسطى والصين سنة ١٤١٩م مع عدد من السفراء إلى إمبراطور الصين يونج لو ، وقد استمرت رحلته سنتين وخمسة عشر يومًا من يوم خروجه من هرات وحتى عودته إليها[٢] .

ولَا يمكنُ الحديثُ عن أدبِ الرحلة العثمانيّة دون الإشارةِ إلى الرَّحالة العثمانيّ الشهير أوليا جلبي[٣] ، والذي قضى أكثر من أربعين عامًا يجوبُ البلاد التابعة للدولة العثمانية إما برفقة رجالات الدولة أو مصاحبًا الجيش العثماني أو حاملًا لرسالةٍ من طرف الدولة ، فجاب مناطق الأناضول ومصر والسودان وزار بلغاريا والنمسا والسويد وهولندا كما زار اليونان وألبانيا وإيران والعراق وبلاد الحجاز وسوريا وغيرها من البلاد ، فترك مؤلّفًا من عشرة مجلدات بدأهُ بوصف مدينته اسطنبول وختمه برحلته إلى

---

(١) للاستزادة راجع : سهيل صابان ، **عجائب اللطائف في أخبار وسياحات ملوك هرات لغياث الدين النقاش** ، مجلة عالم المخطوطات والنوادر ، مج٩ ، ع١ (المحرم- جمادي الآخرة ١٤٢٥هـ/مارس-أغسطس ٢٠٠٤م) ص : ١٨١-١٩١ .

(٢) يُحيطُ الغموض بالكثير من جوانب حياة الرحالة أوليا جلبي (Evliya Çelebi) ، ومعظم المعلومات المتوفرة عنه مأخوذة عن كتاباته ، وُلد في اسطنبول في الخامس والعشرين من مارس سنة ١٦١١م ، وكانَ أبوه ، درويش محمد ظلّي ، رئيسَ صاغة الجواهر في القصر السلطاني ، وأمه شركسيّة جاءت إلى القصر زمنَ السلطان أحمد الأول ، ولا يُعرفُ الاسم الحقيقي لأوليا ؛ وإنما اتخذَ هذا الاسمَ لنفسه إجلالًا لمعلّمهِ الإمام أوليا محمد أفندي . التحق أوليا بمدرسة شيخ الإسلام حامد أفندي حيثُ أمضى سبع سنوات ، ثم درس مدة أحد عشر عامًا في إحدى المدارس القرآنية ، فأتقن تلاوته ، وصار من قراء آيا صوفيا ، وبعدَ ذلك التحقَ بخدمة القصر في عهد السلطان مراد الرابع ، وهناك تدرَّب على الخط والموسيقى والنحو العربي ، وقد شارك أوليا جلبي في الحملات العثمانية التي وجهت إلى الجزر اليونانية والمجر والنّمسا ، كما رافق رجالات الدولة في أسفارهم ومن ذلك مرافقته للسفير العثماني في فيينا قره محمد باشا سنة ١٦٦٥م . تُوفي سنة ١٦٨٤م . للاستزادة انظر :

J. H. Mordtmann-[H. W. Duda], "Ewliya Celebi", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 2 (Leiden: Brill, 1965), pp. 717-720.

مصر . وتجدرُ الإشارة إلى أن المؤرخين يُشكّكونَ في رحلاتِ أوليا جلبي لما يشوبها من مبالغات إضافةً إلى ميلِ صاحبها إلى الأساطير والخرافات دونَ الحقائقِ التاريخيّة ، ويُعتقدُ أن بعضَ الرّحلات التي دوّنها أوليا جلبي لم يقمْ بها بل هي من نسجِ الخيال ، وأيًا كانَ الأمرُ فإنّ سياحتنامه أوليا جلبي تُعدُّ عملًا غنيًا بالمعلومات التاريخيّة والجغرافيّة التي يُمكنُ مقابلتها مع المصادر التاريخية الموثوقة والإفادةِ منها كمصدر من المصادر العثمانيّة .

وتتشابهُ السياحتنامه العثمانيَّة إلى حدٍّ كبير بما يُعرفُ بالسفارتنامه ، أي كُتبُ السفارات أو التقارير السفارية العثمانية ، وغالبًا ما يكون الفرقُ بينهما متصلٌ بصفة الكاتبِ ؛ فإنّ عُهدت له مهام دبلوماسيَّة فإنَّ ما يكتبه خلال رحلته يندرجُ ضمنَ السفارتنامه ، وإن لم يكن مُكلَّفًا بمثلِ هذه المهام كأنْ يكون رحَّالةً أو مرافقًا لسفيرٍ أو نحو ذلك فإن ما يُدوّنه يُعدُّ من قبيلِ السياحتنامه .

ويبلغُ عدد الرحلات السفارية العثمانيّة التي وصلتنا تسعًا وأربعين رحلةً ، ويمكنُ تصنيفها حسبَ الدول التي أُرسِلتْ إليها هذه السفارات على النحو الآتي(١) :

النمسا

* حجي زاغانوس (١٤٦٠م؟)
* هداية (١٥٤٠م؟)

---

(١) لعلّ أول من أحصى السفارتنامه العثمانية هو فائق رشيد أونات حيثُ جعلها ستًا وأربعينَ سفارتنامه ، Unat, Faik Resit, Osmanlı Sefirleri ve Sefaretnâmeleri 1968 ، في حينَ أعدَّ يالتشن قايا (Yalçınkaya) قائمةً رتبَ فيها السفارتنامه وفقَ الدول وجعلها ثمانٍ وأربعين نصًا ، Mehmet Alaaddin Yalçınkaya, *Osmanli Zihniyetindeki Degisimin Göstergesi Olarak Sefaretnmalerin Kaynak Defteri*, OTAM, Sayı: 7, 1996, pp. 331-332 ، وأضافَ حسن كوركت (Hasan Korkut) إلى هذه القائمة رحلة سيف الدين آغا إلى فيينّا Hasan Korkut, *Osmanlı Sefaretnâmeleri Hakkında Yapılan Arastırmalar, Türkiye Arastırmaları Literatür Dergisi*, Cilt 1, Sayı: 2, 2003, 509-511.

* قره محمد باشا ، فيينا سفارتنامه سي (١٦٦٥م)
* ذو الفقار باشا ، مكالمة تقريري (١٦٨٨-١٦٩٢م)
* سيف الله آغا ، فيينا سفارتنامه سي (١٧١١م)
* إبراهيم باشا ، فيينا سفارتنامه سي (١٧١٩م)
* مصطفى أفندي ، فيينا سفارتنامه سي (اصطلاح-ى نمجه) (١٧٣٠م)
* خطي مصطفى أفندي ، نمجه]نمسا [سفارتنامه سي (١٧٤٨م)
* أحمد رسمي أفندي ، فيينا سفارتنامه سي (١٧٥٧-١٧٥٨م)
* أبو بكر راتب أفندي ، نمجه]نمسا [سفارتنامه سي (١٧٩١-١٧٩٢م)

آق قويونلو

* تاج الدّين (١٤٧٠م؟)

فرنسا

* يكرمي سكيزنجي جلبي محمد أفندي ، فرنسا سفارتنامه سي (١٧٢٠-١٧٢١م)
* مورالى سعيد علي أفندي ، فرنسا سفارتنامه سي (١٧٩٧-١٨٠٢م)
* محمد سعيد غالب أفندي ، فرنسا سفارتنامه سي (١٨٠٢م)
* سعيد محمد أمين وحيد أفندي ، فرنسا سفارتنامه سي (١٨٠٦م)
* سعيد عبد الرحيم مهيب أفندي ، فرنسا سفارتنامه سي (١٨٠٦-١٨١١م)
* سعيد مصطفى سامي أفندي ، اوروبا رساله سي (١٨٣٨م)
* عبد الرزاق باهير أفندي ، رساله (سفارتنامه) (١٨٤٥م)

إيران

* أحمد دري أفندي ، ايران سفارتنامه سي (١٧٢١م)
* مصطفى نظيف أفندي ، ايران سفارتنامه سي (١٧٤٦م)
* حجي أحمد باشا ، ايران سفارتنامه سي (١٧٤٧م)

* سمبل زاده وهبي أفندي ، قصيده-ى طنانة (١٧٧٦م)
* سعيد محمد رفعي أفندي ، ايران سفارتنامه سي (١٨٠٧م)
* ياسنجي زاده سعيد عبد الوهيب أفندي ، مصور ايران سفارتنامه سي (١٨١١م)
* محمد طاهر منيف باشا ، رساله (١٨٧٢-١٨٧٧م)

روسيا

* نشلي محمد آغا ، روسيا سفارتنامه سي (١٧٢٢-١٧٢٣م)
* محمد امني أفندي ، روسيا سفارتنامه سي (١٧٤٠-١٧٤٢م)
* درويش محمد أفندي ، روسيا سفارتنامه سي (١٧٥٥م)
* شهدي عثمان أفندي ، روسيا سفارتنامه سي (١٧٥٧-١٧٥٨م)
* كسبي مصطفى أفندي ، عبرتنامه-ى دولت (١٧٦٧-١٧٦٨م)
* سلحدار إبراهيم باشا ، سفارتنامه-ى نجاتي (١٧٧١-١٧٧٥م)
* عبد الكريم باشا ، سفارتنامه-ى عبد الكريم باشا (١٧٧٥-١٧٧٦م)
* مصطفى راسخ باشا ، روسيا سفارتنامه سي (١٧٩٣-١٧٩٤م)

لهستان [بولونيا الحالية]

* محمد أفندي ، لهستان سفارتنامه سي (١٧٣٠م)
* علي آغا ، لهستان سفارتنامه سي (١٧٥٥م)
* محمد آغا ، لهستان سفارتنامه سي (١٧٥٧-١٧٥٨م)

سويسرا

* محمد سعيد أفندي ، ستوكهولم سفارتنامه سي (محمد سعيد أفندي تقريري) (١٧٣٢-١٧٣٣م)

الهند

* سالم أفندي، هندستان سفارتنامه سي (١٧٤٤-١٧٤٩م)

بروسيا

* أحمد رسمي أفندي، بروسيا سفارتنامه سي (١٧٦٣-١٧٦٤م)
* أحمد عزمي أفندي، بروسيا سفارتنامه سي (١٧٩٢-١٧٩٠م)
* كريتلي علي عزيز أفندي، بروسيا سفارتنامه سي (١٧٩٧-١٧٩٨م)

المغرب

* سعيد اسماعيل أفندي، فاس سفارت تقريري (١٧٨٥-١٧٨٦م)
* احمد عزمي أفندي، فاس سفارت تقريري (١٧٨٧م)

خانات بخارى

* علم دار محمد آغا، بخارى سفارتنامه سي (١٧٨٧-١٧٩١م)

إسبانيا

* واصف أفندي، اسبانيا سفارتنامه سي (١٧٨٧-١٧٨٨م)

بريطانيا

* يوسف آغا أفندي، حوادثنامه-ى انجلترا (١٧٩٣-١٧٩٧م)
* محمود رائف أفندي، رحلة محمود رائف أفندي إلى انجلترا والمدوَّنةُ من قِبَلِهِ (١٧٩٣-١٧٩٧م)
* محمد نامق باشا، تقريرلر (لوندره سفارتنامه سي) (١٨٣٢م)

إيطاليا

* محمد صادق رفعت باشا، إيطاليا سياحتنامه سي (١٨٣٨م)

تشكِّلُ السفارتنامه والسياحتنامه مادَّة علميَّة غنيَّة للمهتمين بدراسةِ تطور نظرة العثمانيين للعالم من حولهم، وبخاصّة أوروبا، التي كان تعامل معها العثمانيّون

لعـهـود طويلة من الزمـان بمنظور عـسكريّ ، ولـم يكونوا مـعنيين حـتّى وقت متـأخـر بثقافات بلدان هذه القارّة وإنجازاتها الحضريّة والثقافيّة والعلميّة ، ولهذا فإنَّ ما دوِّنَ عن أوروبّا حتّى أوائل القرن الثامن عشر لم يكن ينطوي على عظيم فائدة أو على الأقل على نظرة إيجابية تجاه الغرب ، ولم يشغلِ المسلمُ العثماني نفسه بتعلم اللغات الأجنبية مما جعلَ حصوله على المعلومات عن الآخر بصورة مباشرة أمرًا صعبًا ، وأما في العهودِ الأخيرة فقدَ اكتشفتِ الدولةُ العثمانية حجمَ الهوَّة التي تفصلها عن أوروبا وخاصةً بعدَ ما أصابَها من وهنٍ وما مرَّتْ به من هزائم في مقابلِ تقدّم أوروبا في كافّة الميادين العلمية والحضرية والعسكريّة ، وعندئذٍ بدأ العثمانيون يلجؤون إلى فنِّ الدبلوماسيّة وتعلم اللغات الأوروبية ، وإيفاد السفراء الدائمين وغير الدائمين ، وكانَ هؤلاء يدوّنون مشاهداتهم ويعبّرون عن دهشتهم إزاء مظاهر التقدّم والرُّقي .

ولعلَّ من أولى الرحلات العثمانية التي تميَّزتْ بالإيجابيّة تجاه الغرب وساهمت إلى حدٍّ كبير في تعريفِ الوسطِ السياسي والثقافي في اسطنبول بمنجزات الغرب المسيحيّ هي رحلة محمد جلبي أفندي يكرمي سكيز إلى فرنسا سنةَ ١٧٢٠م ، وكانَ من أهدافِ هذه الرّحلة ، ولعلَّه الهدف الرئيس ، هو «زيارةُ الحصونِ والمصانع ، وإنجاز دراسةٍ وافيةٍ عن سُبل الحضارة والتعليم ، وإعداد تقريرٍ حولَ ما يصلُحُ تطبيقه في الإمبراطوريّة العثمانيّة»[1] ، وبالفعلِ قامَ يكرمي سكيز بالمهمّة على أتمّ وجه وزوَّدَ صناعَ القرار في اسطنبول بتقرير كانَ له أثرٌ واضح فيما شهدته الدولة من اقتفاءٍ للمنجز الفرنسيّ خلال حكم السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠م) ، وخاصةً إبَّانَ ما يُعرفُ بعهد التوليب (لاله دورى) حيثُ شهدت هذه الفترة الانفتاح الحقيقي الأول على الغرب والإفادة منه ومحاولة تقليده في استجلابِ النظم الحديثة في مختلف الميادين ومحاكاة الطراز الأوروبي في فنّ العمارة .

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنَّ بعضَ نصوص السياحتنامه والسفارتنامه العثمانيّة ما تزالُ مخطوطات لم ترَ النورَ بعدُ ، وبعضها مطبوعٌ بالعثمانيّة ولم يُترجم إلى التركيّة أو إلى لغاتٍ أخرى ، وتتفاوتُ هذه الرحلات من حيثُ الحجم والأهمية ،

---

(1) Bernard Lewis (1982), *the Muslim Discovery of Europe*, New York, p. 240.

إلاّ أنها عمومًا تُعدُّ مادّة تاريخيّة تعينُ الباحثينَ على تتبّعِ علاقة الدولة العثمانيّة بالعالم الخارجي وفهمها .

إيطاليا بعيون الرَّحالة والجغرافيين العثمانيين

سبقت الإشارة إلى أن العثمانيين لم يولوا الدبلوماسيَّة أهميَّةً كبرى في تعاملهم مع الغرب المسيحي ، ولم يكن هناك حتى أواخر القرن الثامن عشر سفارات عثمانية دائمة في أوروبا ، ولم تنشط الرحلات العثمانية إلى أوروبا إلا في العهودِ المتأخرة حينَ اكتشفَ العثمانيون حجمَ الفجوة بينهم وبين الأوروبيين في جميع المجالات العلمية والعسكرية ، وأدركَ المتنورون والإصلاحيون العثمانيون أن السبيلَ إلى اللحاقِ بركبِ التقدم لا يتأتّى سوى بمحاكاةِ النموذج الأوروبي والاستفادةِ من إنجازاتِ الغرب المسيحي ، بينما احتفظَ رجالُ الدين بأفكارهم التقليدية الرّافضة لكل ما هو جديد ولكل ما هو غير مسلِم مكررين الأفكار البدائية نفسها التي تحصرُ الصلاحَ والإصلاحَ في العودة إلى شرعِ الله .

وأمّا الدول الأوروبيّة فقد كانت حريصةً على إرسال سفرائها إلى الدولة العثمانيّة بُغية رعايةِ مصالحها التجارية ومصالح رعاياها المدنية والدينيّة ، وأيضًا لأجلِ تتبُّع أخبارِ الدولةِ العليّةِ وتحرُّكاتها ورصدِ سياساتها . وكان السفراء والمبعوثون الأجانب حريصين على تدوينِ تجاربهم في الدولة العثمانية وتزويدِ صناعِ القرار في بلادهم على نحوٍ دوريّ بتقاريرَ مفصلةٍ حول مختلفِ الشؤون . وإلى جانبِ السفراء ، كانت الرحلات الأوروبية إلى الشرق وإلى عاصمةِ الدولة العثمانية أمرًا مألوفًا ، إذ لطالما كان الشرق مثارَ فضولٍ للأوروبيين بسببِ الأفكار النمطية التي تكوّنت في التصوّر الأوروبي نتيجةَ الكتاباتِ المتواترة وما شابها من مبالغات .

كانت الدويلات الإيطالية ، وبخاصة جمهورية البندقيّة وجنوا ، تنشطُ في مجالِ التجارة في البحر الأبيض المتوسط قبل ظهور العثمانيين على خارطة الحياة السياسية ، وكانت تربطها معاهدات تجارية مع البيزنطيين ، وحرصَ العثمانيون بعد فتحهم القُسطَنطينيةِ ونقلِ عاصمة دولتهم إليها على استمرار النشاط التجاري مع الدول الإيطالية والاضطلاع بالدور الذي كان يقومُ به البيزنطيون . وقد كانت عاصمة

الدولة محجًا للتجار الإيطاليين .

وإذا كان التجارُ الإيطاليون قد سلكوا طريقهم إلى الشرق وإلى عاصمة الدولة العثمانيّة ، فإنَّ المصادر التاريخيَّة تشيرُ أيضًا إلى وجودِ جاليات من التجار العثمانيين في إيطاليا ، وبالأخص في جمهوريّة البندقيّة ، إذ تُدلي المصادرُ التاريخية الإيطالية بإشارات تدلُّ على وجود التجار الأتراك في البندقيّة منذ أوائل القرن السَّادس عشر ، ويبدو أنه لم يكن لديهم مساكن خاصة بهم آنذاك ، بل كانوا يقطنون في بيوت وخانات مملوكة لغيرهم ، ومن هذه الإشارات ما توردهُ المصادرُ من اعتقال مجموعة من الأتراك أواخر سنةَ ١٥٣٧م[١] ، وثمَّةَ إشارة أخرى على وجود التجار العثمانيين في البندقيّة ، فيذكرُ أحد المؤرخين الإيطاليين أنه بعدَ انتصار الأسطول المسيحي في معركة ليبانتو هرب العثمانيون من حي ريالتو الذي كانوا يمارسون فيه أعمالهم التجاريّة إلى حيّ كانّارجُو (Cannareggio) واختبأوا في بيوت آل باربرو (Barbaro) التي مُنحت لهم لأجل الإقامة فيها[٢] .

إلاّ أنه من الواضح أنّ التجار العثمانيين لم يكونوا معنيين بتدوين تجاربهم وانصرفوا لمهامهم التجاريّة فقط ، ولهذا لم تصلنا -على حدّ علمي- كتاباتٌ تتعلّق بإقامتهم في البلادِ الإيطاليّة .

لعلّ أوّل ما وصلنا من الرّحلات العثمانيّة إلى إيطاليا هو ما دوّنه سفيرُ الدولة العثمانيّة البحّار براق ريس والذي أرسلَ إلى دوقة سافويا (Ducato di Savoia) في مهمة تقتضي جمعَ معلومات أثناء وجودِ الأمير جم شقيق السلطان بايزيد الثاني هناك أواخرَ القرن الخامس عشر . ويأتي براق ريس في رحلته على ذكر عددٍ من المدن الإيطاليّة التي مرَّ بها مثل جنوا (Genova) وتورينو (Torino) وريميني (Rimini) ، ويذكر أسماءَ بعضَ من التقى بهم من شخصيات ، غير أنّ هذه الرحلة الموجزة تخلو

(١) انظر : Preto, Paolo (1975), *Venezia e i Turchi*, Firenze, Sansoni ، نقلًا عن مذكرات سانوتو : Sanuto, i diarii, XVII, col. 525.

(2) Gallicciolli, Giovanni Battista (1795), *Delle Memorie Venete Antiche, Profane ed Ecclesiastiche*, Venezia, C. Fracass, 101-102.

من أوصاف مفصّلة للمدن والمشاهدات[١] .

ومن أهم الرحلات المبكّرة إلى إيطاليا رحلةُ الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني سنة ١٦١٣م ، الذي وإن لم يكن تُركيا إلا أنّ رحلته كانت نتيجةً لصراعه مع آل عثمان ، وكان فخر الدين من أوائل الوطنيين العرب الذين حاولوا الاستقلال عن الحكم العثماني ، حيثُ تولى إمارة الشوف ثم سنجقيْ بيروت وصيدا ، ومدّ سلطته إلى ما وراء طرابلس ، ولما كان السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧م) منصرفًا لمحاربة شاه العجم وملك المجر سنة ١٦٠٣م سارعَ فخر الدين إلى توسيع نطاقِ حكمه ؛ فاستولى على بلاد صفد وعجلون وبانياس وكسروان والثغور البحرية وبيروت وصيدا وعقد معاهدات تجارية مع تجار تُوسكانا (Toscana) ، وفي سنة ١٦٠٨م وقّع معاهدة تجارية مع فردينان الأول دوق توسكانا ، فازدهرت تجارة الحرير والصابون والمنسوجات وغيرها[٢] .

بدأ الأمير فخر الدين رحلته بحرًا من ميناء صيدا في أوائل سبتمبر من سنة ١٦١٣م متوجهًا إلى توسكانا ، فمرَّ بجزيرة كنديا ومنها أبحر إلى صقلية ثم توجه من هناك إلى سردينيا فجزيرة كورسيكا إلى أن رست سفينته في ميناء الكرنه (ليفورنو) في أواخر تشرين الأول من العام نفسه ، ومن الكرنه توجه إلى فلورنس لمقابلة الغران دوكا فمر بمدينة بيزا وعاد من فلورنس إلى الكرنه لاصطحاب أسرته والإقامة في فلورنس تحتَ رعايةِ الغران دوكا . ثمّ انتقل من فلورنس إلى مسينا في جزيرة صقلية بدعوةٍ من ملك إسبانيا ، وفي أثناءِ وجوده في صقلية قامَ بزيارةِ بعضِ مدنها وموانئها ، وعادَ إلى باليرمو لينتقل منها بمعية الدوق إلى نابولي وأقام فيها نحوَ

---

(١) للاستزادة راجع :

Serafettin, Turan (1962), Barak Reis' in Sehzade Cem Meselesiyle Ilgili Olarak Savoie' ya Gönderilmesi, *TDAY Belleten*, 36 (103), ss.539-551.

(٢) انظر : المعنيّ الثاني ، الأمير فخر الدين ، **رحلة الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني إلى إيطاليا** ، حقّقها وقدّم لها قاسم وهيب ، دار السويدي والمؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ، أبوظبي ، بيروت ٢٠٠٧ ، ص : ١٥-١٦ .

سنتين ، ومنها عادَ أدراجه إلى بلاده مرورًا بسينا فمبناء عكا حيثُ انتهت رحلة العودة بعد مضي خمس سنواتٍ وشهرين على خروجه من بلاده[1] .

تعدُّ رحلة الأمير فخر الدين واحدة من أقدم الرحلات الشرقيّة إلى أوروبا ، ومما يجعلُ لها قيمة استثنائية هو أنَّ كاتبها ، وهو رجلُ دولةٍ محنّك وقائدٌ ثوريٌّ طموح ، توَّجه إلى إيطاليا هربًا من بطشِ آل عثمان في فترةٍ كانت فيها البلاد الإيطالية ، وبخاصة فلورنس في توسكانا ، تشهدُ بدايات النهضة الأوروبية الحديثة التي عمّت آثارها فيما بعد أرجاء المعمورة .

تقدمُ الرحلة بلغتها الشامية المتواضعة وصفًا جميلًا للمدنِ التي مرَّ بها الرَّحالةُ ، والمتاحفِ التي زارها ، وتصفُ الحدائقَ والقصور والكنائس وغيرها من المظاهر الحضريَّة ، ففي زيارته إلى مدينةِ بيزا يأتي على وصفِ برجها المائل ويسميه «المادنة العوجا» أي المئذنة المعْوَجَّة : «وفي هذه المدينة المادنة العوجا ، الذي معلقين فيها النواقيس لأجل معرفة الساعات ، ولإحضار الصلوات ، ويسمونها ماريًا ، وانعواج هذه المادنة أمر عجيب في صناعة البنايين معمولة مربعة . . . وقالوا إنَّ في مدينة البندقية مادنة أخرى عوجا مثل المذكورة»[2] كما أنَّ الرَّحالة يتوقَّفُ عندَ ثقافة مضيفيه وعاداتهم ؛ فيذكرُ أعيادهم واحتفالاتهم وما يجري فيها من رقص وعروضٍ مسرحيّة وكرنفالات ، ويعرضُ في ذلك للعلاقات الاجتماعية ومكانةِ المرأة «وكذلك يرقصوا النسوان والرجال ، كل من يرقص مع ندّه . . . لأن عادتهم ما تحتجبُ النسوان عن الرجال لا في الرقص ولا في الزقاقات [الأزقة] ، حتى إذا غاب الرجل تقعدُ المرأة تبيعُ في الدكان عوضه»[3] .

ومن الرحالة العثمانيين الذين دوَّنوا مشاهداتهم وانطباعاتهم عن البلدات التي تقعُ اليوم ضمنَ جغرافيّة إيطاليا الرحالة الشهير أوليا جلبي . فقد زارَ دالماسيا أول مرة عامَ ١٦٥٩ ، ثمّ عام ١٦٦٤م حاملًا رسالةً من الصدر الأعظم إلى راغوزا (Ragusa)

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٢٩-٣٠ .

(٢) الرحلة ص : ٤٢ .

(٣) الرحلة ، ص : ٤٧ .

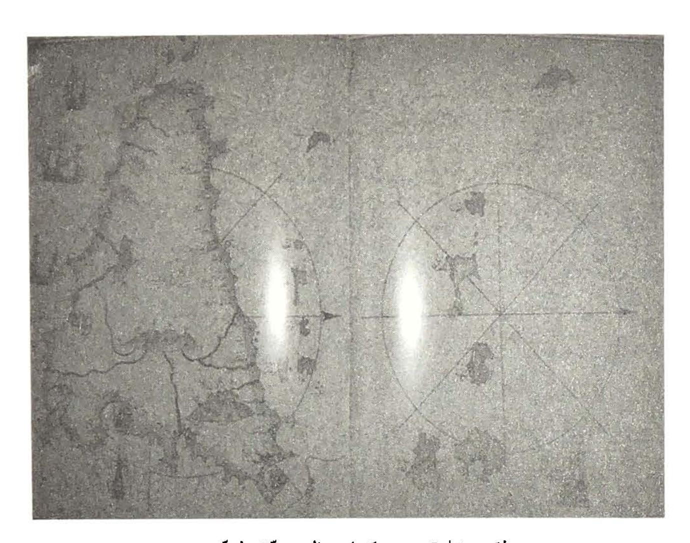
التي تقعُ اليوم ضمنَ جزيرة صقلية جنوب إيطاليا . وبرغم أنه لم يزر البندقيّة إلاّ أنه يأتي على ذكرها ، ويشيرُ إلى أنّ الكثيرَ من «الفرنجيين» يتحدثون الإيطاليّة ، وأن لغةَ البنادقة هي الأجمل ، ويدوّن بعضَ الكلمات التي تعلمها من القوم كالأرقام والتحيّات وبعضِ الشتائم . غير أن كثيرًا من المواضع التي جاء على ذكرها الرحالة ما تزال مبهمةً لدى الباحثين الذين حاولوا دراسة ما يتعلق بإيطاليا في كتابات أوليا جلبي(١) .

وقد أوْلى الجغرافيون العثمانيون أهميةً للبلادِ الإيطاليّة ؛ فقد حفلَ كتابُ الجغرافي العثماني الشهير أحمد محيي الدين الريس بيري (ت/١٥٥٣م) المعروف باسم «**كتاب البحرية**» بخرائط ومعلومات دقيقة خاصّة بالبلاد الإيطالية كجنوا والبندقيّة وبوليا ونابولي ، والجزر الإيطالية مثل جزيرتي سردينيا وكوسيكا وغيرها ، كما يأتي الريس بيري على وصفِ القصور والقلاع ، ولعلَّ البندقيّة والجزر التابعةَ لها أكثر المواضع التي حظيت بالنصيبِ الأكبر من اهتمام الريس بيري ، وذلك لأهمية البندقية ونشاطها التجاري في البحر الأبيض المتوسط . وعلى ذلك النحو فقد أتى كاتب جلبي في مؤلفه « تحفة الكبار في أسفار البحار» على ذكر مدينة البندقيّة والجزر التابعةِ لها ، فيوردُ أنه يتبعُ لها نحو ستين جزيرة صغيرة ، وأنها محاطة بالقلاع والأسوار . كما يأتي على ذكر معالم البلدة وسكّانها . ويؤرخُ كاتب جلبي لحروبِ الدولة العثمانيّة مع البنادقة ولا سيّما معركة ليبانتو سنةَ ١٥٧١م(٢) .

---

(1) Rocchi, Luciano (2008),*Tra guerra e diplomazia : un viaggiatore turco nella Dalmazia del Seicento : passi scelti dal Seyahatname di Evliya C'elebi*, Edizioni Italo Svevo; Bellingeri, Giampiero (2008), *Sguardi turco-ottomani su Venezia e i Veneziani* in U. Israel A C. DI, La diversa visuale. Il fenomeno Venezia osservato dagli altri, Roma-Venezia, Edizioni di Storia e Letteratura-Centro Tedesco di Studi Veneziani - Biblioteca Nazionale Marciana, Venezia, pp. 39-74.

(٢) للاستزادة انظر : جلبي ، كاتب ، **تحفة الكبار في أسفار البحار** ، دار الطباعة المعمورة ، القسطنطينية ، ١٧٢٩م .



خريطة صقلية من «كتاب البحريّة» لريّس بيري

Piri Reis (2002), Kitab-ı Bahriye, T.C.

Ba baskanlik Denizcilik Müstesarligı, Ankara, p. 380-381

وبالإضافةِ إلى كتبِ الرَّحالة والجغرافيين ، فقد حفلتِ الصحف والمجلات العثمانيّة منذ النصفِ الثاني من القرن التاسع عشر بمعلومات وفيرة عن المدنِ الإيطاليّة وبالأخص روما والبندقيّة وميلانو ونابولي . وشملت هذه المعلومات أوصافًا للمدنِ والقصور والكنائس ونحو ذلك من المعالم الحضريّة ، إضافةً إلى إشارات حول ثقافات أهالي تلك البلدات وطباعهم . وقد أفردت مجلّة «ثروتِ فنون» صفحات خاصة للكتابات والأخبار والصور المتعلقةِ بأوروبا[١] .

---

(١) للاستزادة راجع :

Oguz Karakartal (2003), *Türk edebiyatında Italya: Italya ile ilgili yazılar, edebiyat eserleri ve gezi kitapları üzerinde bir deneme*, Istanbul, Eren Yay, ss.13-49.



مشهد لكاتدرائية ميلانو

المصدر : صحيفة منظره ، العدد ٦ ، ١٥ مايو ١٨٨٧م ، ص : ٦٧ ، نقلًا عن :

Karakartal, Oguz & Devrim, Tunay (2006), Eski Yazı (Osmanlıca) Dergilerde Resimlerle Italyan Varlıgı, Istanbul, Eren, p. 83.

مسارُ الرّحلة

نفهم من تتبّع نصّ الرّحلة أنَّ السَّفيرَ محمد صادق رفعت باشا بدأ رحلته من فيينا في الثاني من شهر أغسطس سنة ١٨٣٨م مارًا «ببعضِ القرى والقصبات» دونَ تسميتها حتّى وصلَ في اليوم الثاني إلى مدينةِ لينتز (Linz) .

ومن لينتز انتقلَ إلى مدينةِ سالزبورغ (Salzburg) ومنها إلى مدينةِ ميونخ (Munich) حتّى وصلَ إلى مدينةِ إنسبروك (Innsbruck) في إقليم تيرول غربَ النمسا ، ليدخلَ بعدَ ذلك إلى البلاد الإيطالية ويصل إلى مدينة ترينتو (Trento) ، ومنها عبرَ إلى مدينة فيرونا (Verona) حيث رأى أبنيتها الكبيرة والقديمة ، وجسرها العظيم ومسرحها القديم .

وبعد ذلك توجه الرَّحالة إلى مدينة ميلانو (Milano) مرورًا بمدينة بسكييرا (Peschiera) وسان جانو (Sangiano) وبريتشا (Brescia) ووصلَ إليها يومَ السبت التاسع عشر من أغسطس .

وقد جابَ الرَّحالةُ المدنَ القريبة من ميلانو ؛ فزارَ مدينةَ مونسا (Monza) ، ورأى على مقربةٍ منها قصرًا عظيمًا وحديقة جميلة ، ودخلَ مكتبتها واطلعَ على مقتنياتها ، وتوجَّه إلى مدينة كومو (Como) وزارَ متحفها ورأى الرسومات المحفوظةِ فيه . ومن كومو توجَّه إلى بحيرة ماجوري (Lago Maggiore) وزارَ الجزيرة الجميلة (Isola Bella) الواقعةَ فيها . وفي الرابع عشر من سبتمبر سارَ الرَّحالةُ مساءً إلى مدينة كورسيكو (Corsico) وهي على مقربةٍ من ميلانو .

وفي السابع عشر من سبتمبر غادر محمد صادق رفعت باشا ميلانو قاصدًا زيارةَ بعض المدن في إيطاليا ، وهي في رأيه «من خير البلاد في القارَّة الأوروبية» ، فتوجه إلى مدينة لودي (Lodi) ومنها انتقل إلى بياتشنسا (Piacenza) فمدينة بارما (Parma) فمودينا (Modena) وصولًا إلى مدينة بولونيا (Bologna) التي كانت آنذاك

واقعة تحت سلطة الكرسي الرسولي .

ومن بولونيا واصلَ السَّفيرُ رحلته قاصدًا مدينةَ فلورنس (Firenze) وهي مدينةٌ «مشهورة ومعمورة» ورأى قصورها ومتاحفها وكنائسها القديمة ، وأقامَ فيها بضعةَ أيّام .

ثمَّ غادر فلورنس متجهًا إلى ليفورنو (Livorno) ، مرورًا بمدينة بيزا (Pisa) ، ومن حيث وجود قنصلٍ من طرف الدولة العثمانية إضافة إلى تجار مسلمين في ليفورنو فإنَّ السفيرَ أقامَ فيها ثلاثةَ أيام ليتجه بعدَ ذلك إلى مدينة فرَّارا (Ferrara) سالكًا طريق فلورنس وبولونيا ، ثمَّ انتقلَ بعدَ ذلك إلى مدينةِ بادوفا (Padova) .

ومن بادوفا انتقلَ محمد صادق رفعت باشا بواسطةِ قاربٍ إلى البندقيّة ، وهذه المدينة -من وجهةِ نظر الرَّحالة- لا نظيرَ لها على وجه المعمورة لأنَّها محاطة من جهاتها الأربع بالبحر ، وبعدَ وصول الإمبراطور فيرديناند الأول إلى البندقية في الخامس من تشرين الأول شاركَ السفيرُ كبارَ رجالات الدولة في زيارة معالم المدينة ؛ «فرأى بعضَ الأماكن الجميلة والمشهورة في البلدة» وزارَ خليجَ البندقية ورأى الحصونَ القديمة ، كما توجَّه إلى جزيرة مورانو (Murano) المعروفةِ بالصناعات الزجاجية ، وتحصّلت له الفرصة لرؤية الترسانة والسفن الموجودةِ فيها ، وزار الكنائس والمتاحفَ والساحات ، كما شاهدَ العروضَ المسرحية والعروضَ الراقصة وسباق القوارب والمناورات العسكرية ونحو ذلك .

وفي السابع عشر من أكتوبر غادرَ السفيرُ مدينةَ البندقيَّة ، ولأجلِ زيارة مدينة تريستي (Trieste) فقد سلكَ طريقها ، ووصلَ إليها بعدَ يومين ، وأقامَ فيها يومين ، ثمَّ توجّه إلى مدينةِ غراتس (Graz) ونزل فيها يومًا واحدًا . وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول وصلَ إلى فيينا التي انطلقَ منها وحيثُ يقيمُ بصفته سفيرًا للدولة العثمانية لدى البلاط النمساوي .

وبهذا تكونُ رحلة محمد صادق رفعت باشا إلى إيطاليا قد استغرقت شهرين وثلاثة وعشرين يومًا منذُ انطلاقه من فيينا وحتّى عودته إليها .

ويذكرُ السفير أنه وبعدَ انتهاء مهمَّته في فيينا عاد إلى اسطنبول ، بيدَ أنه لا يذكرُ التاريخَ الذي عادَ فيه على وجه التحديد .

وكانت المواضع التي مرَّ بها الرَّحالة على النحو الآتي :

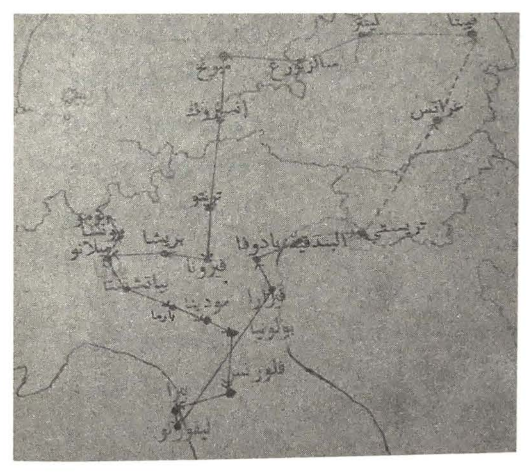
المدن والجزر وعددها ثمان وعشرون :

* لينتز (Linz)
* سالزبورغ (Salzburg)
* ميونخ (Munich)
* إنسبروك (Innsbruck)
* ترينتو (Trento)
* فيرونا (Verona)
* بسكييرا (Peschiera)
* سان جانو (Sangiano)
* بريتشا (Brescia)
* ميلانو (Milano)
* مونسا (Monza)
* كومو (Como)
* الجزيرة الجميلة (Isola Bella)
* كورسيكو (Corsico)
* لودي (Lodi)
* بياتشنسا (Piacenza)
* بارما (Parma)
* مودينا (Modena)
* بولونيا (Bologna)
* فلورنس (Florence)
* بيزا (Pisa)
* ليفورنو (Livorno)
* فيرّارا (Ferrara)
* بادوفا (Padova)
* البندقية (Venezia)

* جزيرة مورانو (Murano)
* تريستي (Trieste)
* غراتس (Graz)

الأنهاروالبحيرات وعددها تسعة :

* نهر الدَّانوب
* نهر سالزاك (Salzach)
* نهر ايسار (Isar)
* نهر اديجي (Adige)
* نهر البو (Po)
* نهر الآرنو (Arno)
* بحيرة كومو (Lago di Como)
* بحيرة غاردا (Lago di Garda)
* بحيرة ماجوري (Lago Maggiore)



المفتاح :

الخط المتـصل : مســار الرِّحلة

الخط المتقطع : مسار العودة

توجدُ رحلة محمد صادق رفعت باشا ضمنَ كتاب (منتخبات آثار) ، وهو كتابٌ يضمُّ كلَّ ما دوَّنه محمد صادق رفعت باشا ، وقد جمعه ونشره ابنه محمد رؤوف باشا ، وصدرت من الكتاب طبعتان ؛ الأولى في عام ١٨٥٨م والثانية في عام ١٨٧٤م . ولم يُترجم الكتابُ -وفق ما تبيّن لي- إلى التركيَّة الحديثة أو إلى أيّ لغة أخرى ، وقد أُنجزت عدَّة دراسات حولَ بعضِ المواضيع الواردة في الكتاب والتي أولاها الباحثون اهتمامًا دونَ غيرها ، بيدَ أنه لم يتم بعدُ تناولُ أعمال محمد صادق رفعت باشا بالجمل ترجمةً ودراسةً ونقدًا .

وتقعُ الرحلةُ بطبعةِ عام ١٨٥٨م في خمس وعشرين صفحة تبدأُ بصفحة ١٨ وتنتهي في صفحة ٤٢ ، وأما في طبعةِ ١٨٧٤م فتقعُ في سبع عشرة صفحة وتبدأ في صفحة رقم ١٤ وتنتهي في صفحة رقم ٣٠ ، وعنوانها «**رفعت باشا مرحومك ويانه ده ابتداكي سفارتنده ايتاليا يه عزيمتنده قلمه الديغي سياحتنامه در**» .

وقد اعتمدتُ الطبعةَ الثانيةَ ، وهي مطابقةٌ للطبعة الأولى ولا يوجدُ اختلافٌ سوى في موضوع واحد وكلمة واحدة فقط ، وقد أشرتُ إلى ذلك في الهامش .

ولقد سهَّلَ عليَّ مهمةَ الترجمة أن عثرت على نصِّ الرحلةِ مكتوبًا بالحروف اللاتينيّة ، دونما ترجمة إلى التركيّة الحديثة ودونما شروحات ، وذلك في بحثين أحدهما للأستاذة أولكو غورسوي (Ülkü Gürsoy)[1] ، والآخر للأستاذين أغوز قره قرتال (Oguz Karakartal) وباقي أصيل ترك (Bâki Asiltürk)[2] .

---

(1) Gürsoy, Ülkü (1999), *Sadık Rıfat Pasa ve Italya Seyahatnamesi*, Gazi Egitim Fakültesi Dergisi, s. 374-395.

(2) Oguz Karakartal ve Bâki Asiltürk (1995), *Sadık Rifat Pasa ve Italya Seyahatnamesi, Prof. Dr. Hakkı Dursun Yıldız Armaganı*, MÜ Fen-Edebiyat Fakültesi Yay., Istanbul, 322-330.

وتقتضي الأمانة أن أشيرَ إلى أنَّه ، وبعدَ فراغي من ترجمةِ النصّ العثمانيّ ، قد عثرت على كتابٍ للأستاذ أغوز قره قرتال آنفِ الذكر ضمّنَ فيه النصّ العثمانيّ نفسه والنصّ مكتوبًا بالحروف اللاتينية الذي سبقَ أن أنجزه وزميله باقي أصل ترك ، ثمَّ ترجمَه إلى التركيّة الحديثة دون إي إيضاحاتٍ أو شروحات ، وقد =

ولاحظتُ أن الباحثينَ قد واجهوا صعوبات في تحديدِ بعضِ المواقع الجغرافيّة الواردة في النص العثماني ومن ثمَّ كتابتها بالحروف اللاتينية على النحو الصحيح ، والسببُ في ذلك هو أنَّ الرّحالة دوّنَ أسماء هذه المواضع في حدودِ معرفته وعلى النحو الذي تناهى إلى سَمعه ، إضافةً إلى ندرةِ ما يُقدّمه من معلوماتٍ حولَ بعضِ الأمكنة مما يجعلُ من غيرِ اليسيرِ الاهتداء إليها . وقد عَرَضتْ لي عَقباتٌ في تحديدِ بعضِ المواضع التي جاءَ الرَّحالة على ذكرها ، إلاّ أنني اهتديتُ إليها من خلالِ تتبّع الصحف الإيطالية الصادرة أواخر سنة ١٨٣٨م التي تضمَّنت أخبارًا وافية وتفاصيلَ دقيقة عن تحرُّكاتِ الإمبراطور فيرديناند الأول ، كما سجَّلت الحوليات النمساويّة والإيطالية المعاصرة لزمنِ الرحلةِ تفاصيلَ زيارة الإمبراطور وما رافقها من مراسم واحتفالات .

منهج التحقيق والترجمة

من المعروفِ أنَّ اللغة العثمانيَّة في بُنْيَتها المُعجميّةِ هي خليطٌ من ثلاث لغاتٍ أساسية هي التركية والعربية والفارسيَّة ، ولقد اجتهدتُ في إعداد هذهِ الترجمةِ على نحوٍ يألفهُ القارئ العربيُّ ويأنسُ فيه روحَ الحقبة التاريخيَّة للنص ، ولتحقيقِ هذه الغاية عمدتُ إلى استبقاء الكَلِمِ العربيّ الواردِ أصلًا في المتن ، ولم أستبدله إلاَّ حيثما

= عمدتُ إلى مراجعةِ ترجمتي مستفيدًا من الترجمة التركيّة الحديثة ، وأصلحتُ ما كنتُ قد وقعتُ فيه من هفواتٍ أو ما انتابني الشكُّ بشأن صحته ودقّته ، وهذه الترجمة هي في كتابه القيّم «إيطاليا في الأدب التركيّ»

Oguz Karakartal (2003), *Türk edebiyatında Italya: Italya ile ilgili yazılar, edebiyat eserleri ve gezi kitapları üzerinde bir deneme*, Istanbul, Eren Yay.

كما وأفدتُ من ملخصٍ للرحلة بالتركيّة للأستاذ جاهد بليم :

Cahit Bilim, (1989) *Mehmet Sadık Rifat Pasa, Italya Seyahatnamesi, Müntehabat-ı Asar*, Istanbul, 1291, (s. 14-30), Anadolu Üniversitesi Egitim Fakültesi Dergisi, c. II/2, S.261-273.

اقتضت الضرورةُ لإزالةِ الغموض وإجلاء الإبهام ، خاصَّةً وأنّ كثيرًا من المفردات العربيّة في اللغة العثمانيَّة كان لها دلالات مختلفة وسياقات مُحدّدة .

وحاولتُ -قدرَ المُستطاع- التعريفَ بالمواضع التي مرَّ بها الرَّحالةُ من مدن وقرى وأنهار وقلاع وحصون مع الإحالة إلى المصادر والمرَاجع التي أخذتُ عنها .

وعمدتُ إلى تتبُّع الأعلامِ الواردةِ في النصِّ -على قلَّتها- وعرَّفتُ بها مشيرًا إلى المصادر والمراجع التي اَعتمدتها .

وقسَّمتُ اَلنصَّ حسبَ المواضيع وجعلتُ له عناوينَ فرعيَّة بُغيةَ حسنِ الإخراجِ والتسهيلِ على القارئ .

ورأيتُ أن أدرجَ بينَ ثنايا النصِّ رسومًا لبعضِ المواضع والشخوصِ ونحو ذلك مما يتَّصلُ بالمتنِ ، وجُلُّها من المصادر الأوروبية المعاصرة لزمن الرَحلة .

كما ارتأيتُ ترقيم الصفحات كما عليه الحال في النسخة التي اعتمدتها حتّى يتسنّى للباحثِ -إذا ما أراد-الرجوع إلى النصّ العثماني والوقوف على الترجمة .

***

لا يفوتني أن أتوجه بخالص الشكر إلى العاملين في مكتبةِ مركزِ أبحاث التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا) في اسطنبول لما حظيتُ به من المعونةِ أثناء العملِ على هذا الكتابِ .

كما أني مدينٌ للبروفسور جامبييرو بِللنجيري (Giampiero Bellingeri) أستاذ الدّراسات التركيّة بجامعةِ كافوسكاري في البندقية (Università Ca' Foscari Venezia) لتواضعهِ الجمّ وتفضُّلهِ عليَّ بأن أرسلَ إليّ مادةً علميةً قيمةً أفدتُ منها في إعدادِ الدراسةِ التمهيديّة لهذا الكتابِ .

نص الرحلة

أثناء إقامتي في فيينا سفيرًا للدَّولةِ العليّةِ لدى النمسا ، قرّرَ إمبراطور الدولةِ المُشارِ إليها حضرةَ فيردناند الأول(١) -الذي كانَ قد اعتلى العرشَ قبلَ ثلاثِ سنوات- السَّفرَ إلى ميلان لأجلِ إجراءِ مراسمِ التَّتويجِ في مملكةِ إيطاليا ، ودُعيَ إلى هذه الغايةِ جميعُ سفراءِ الدولِ الكُبرى المُقيمينَ في فيينا ، ونحنُ بالمثلِ دُعينا لأجلِ حضورِ هذه المراسمِ ، واستأذنتُ من جانبِ الدولةِ العليَّةِ فرُخِّصَ لي بذلك .

---

(١) وُلِدَ فرديناند الأول (Ferdinand I) في فيينا في التاسع عشر من أبريل سنةَ ١٧٩٣م ، وكان يُعاني في صباه من نوباتِ صرعٍ ، لكنّه أبدى تحسنًا في حالته الصحيّة مما حال دون إقصائه عن الخلافة ، وفي سنةِ ١٨٣٠م جعله أبوه فرانسيس الأول يُتوّجُ ملكًا على هنغاريا ، وبعد ذلك بعام تزوّج فرديناند الأول آنّا (Anna) ابنةَ فيكتور إمانويل (Victor Emmanuel I) ملك سردينيا ، إلاّ أنه لم يُكتب النجاحُ لهذا الزواج بسببِ ظروفِ فرديناند الصحيّة . وحينما تُوفي فرانسيس الأول في الثاني من مارس سنة ١٨٣٥م آلَ الحكمُ إلى فرديناند الأول إلا أن عجزه كان واضحًا بحيثُ إنَّه عُهِدَ بتسيير أمور البلاد إلى مجلسِ دولة مكونٍ من الأمير ميترنيخ (Metternich) مع وزراء آخرين ، إضافةً إلى اثنين من الأمراء هما لويس وفرانسيس شارل . كان فرديناند الأول يعاني من نوبات الصرع التي تقارب حالة الجنون ، وفي لحظات الصحو كان يبدو ضعيفًا ومشوّشًا ، ولذا كان يُطلق عليه شعبيًا اسمَ «الرجل الطيب» ، وهي تسميةٌ تحملَ في طيّاتها السخرية والتعاطف . وكان شديدَ الضعف خلال الاضطرابات الثوريّة التي بدأت منذ عام ١٨٤٦م وانتشرت في كافة أنحاء الإمبراطوريّة ، مما اضطرّه إلى الهرب من فيينا متوجّها إلى إنسبورغ (Innsbruck) في أواسط سنة ١٨٤٨م ، وفي ديسمبر من العام نفسه تخلّى عن العرش ليخلفه فرانسيس جوزيف (Francis Joseph) . وعاش بعدَ ذلك تحت رقابة الأطباء والحراس في براغ حتّى وافته المنية في التاسع والعشرين من يونيو سنة ١٨٧٥م . انظر :

Ferdinand I, *Encyclopedia Britannica*, 1957, Vol.9, p. 165.

التَّحركُ من فيينا والوصولُ إلى مدينةِ لينتز

وفي الحادي عشر من جمادي الأوَّلِ سنةَ ألفٍ ومئتين وأربع وخمسين هجريَّة[1] يومَ الخميسِ المباركِ تحرَّكنا من فيينا، وسافرنا عن طريقِ لِنْج[2] في شمالِ النمسا، واجتزنا بعضَ القرى والقصبات حتّى بلغنا لنج في اليوم التالي، وقد صادفَ تحرُّكنا في أواسط شهر تموز أيامَ حارَّة، بينما كانت الأمطارُ - حسبَ الموقع في هذهِ النواحي - غزيرةً، ولهذا فقد كان الفصلُ بمثابةِ فصلِ الربيع.

ورأينا أثناءَ مسيرنا في تلك الجهاتِ صحراءَ وجبالَ مثل الزُّمرد، وطرقاً مُعبَّدةً بأحجار صغيرةٍ، وممرَّاتٍ وطرقاً منتظمةً، ويوجدُ في أكثرِ أطرافِها أماكنُ للتنزّهِ مزينةٌ بأشجار متساوية.

ولِنْج آنفةُ الذِّكرِ مدينةٌ كبيرةٌ على ضِفَّةِ نهر الدَّانوب، ومعمورةٌ ببعضِ الأبنيةِ العظيمةِ والعاليةِ، والمصانع المشيَّدةِ لما يلزمُ من الصِّناعات(١٤). ومن حيثُ إنَّ فرنسا سابقًا حينَ اعتدت على النمسا قد تجاوزتْ وتخطّتْ من لِنْج فإنَّ المدينةَ هي بمثابةِ الحدِّ الفاصلِ بالنسبةِ إلى فيينا، ولذلك توجدُ في الجهاتِ الأربع للمدينةِ المذكورةِ منذُ عهدٍ قريبٍ استحكاماتٌ جديدةٌ على شكلِ حُصونٍ من طابقين تستوعبُ من عشرين إلى ثلاثين من المدافع الصَّغيرةِ والكبيرةِ، كما يوجدُ نحو أربعين بُرجًا، وعملوا سَلاسلَ لأجلِ مدِّها عبرَ نهرِ الدَّانوب عند الحاجةِ بُغيةَ العنايةِ بهذه الاستحكاماتِ وتوفيرِ ما يلزمُ لها، كما أنهم عبَّدوا الطرقاتِ المجاورةَ بالرَّصاصِ لتسهيلِ مرورِ العربات بحيث إنَّ ثلاثَ أو خمسَ عرباتٍ مُحملةٍ يجرُّها بسهولةٍ كبيرةٍ زوجٌ من الخيلِ.

---

(١) الموافق للثاني من أغسطس سنة ١٨٣٨م.

(٢) يقصدُ مدينةَ لينتز (Linz)، وهي ثالثُ أكبر مدنِ النمسا وتقعُ في شمالِ البلاد على بعدِ ١٦٠ كيلومترًا إلى الغرب من فيينا، ويمرُّ بها نهرُ الدانوب، كانت المدينة مركزًا تجاريًا هامًا خلال العصور الوسطى، وذلك لوقوعها على الخط التجاري التاريخي الذي يصلُ بين بحر البلطيق وإيطاليا. وقد كان جسرُ المدينة الذي بُني عام ١٤٩٧م لسنواتٍ عديدة الجسرَ الوحيد على الدانوب الذي يصلُ بين فيينا وباسو (Passau)، وتعدُّ المدينة اليوم واحدة من المدن الصناعية الهامة في البلاد. انظر:

Ernst C Helmreich, Linz *The Encyclopedia Americana*, 1982, 17/540.

مدينةُ سالزبورغ

ويتمُّ التنقلُ بينَ فيينا ولِنْج بالسَّفينةِ عبر نهرِ الدَّانوب ، ومن هناك وصَلنا إلى مدينة سالجبورق[1] ، وهذه المدينةُ هي الحدُّ الفاصلُ بين دولةِ النمسا وحكومة بفاريا[2] ، وهي محصَّنةٌ بحصون طبيعيّة من ثلاث جهاتٍ بواسطةِ جبلٍ صخريٍّ مرتفع ، وأمَّا من الجهةِ الرَّابعةِ فقد أُنشئتْ قلْعةٌ وخندقٌ كحصنين متصلين بالجبلِ .

ويَجري داخلَ سالجبورق نهرٌ ، والمدينةُ في الأصلِ قديمةٌ وكبيرةٌ جدًا ، كما توجدُ فيها قلعةٌ مرتفعةٌ ، ويوجدُ على نحوِ مسافةِ نصفِ ساعة قصرٌ قديمٌ وحديقةٌ ، وعلى أطرافه أشجار متساوية ومنتظمة ، وفي الحديقةِ ما يُدهشُ من أحواض قديمةٍ ونوافير مُصنَّعةٍ وذاتِ تماثيل ، وتوجدُ أشياء كثيرةٌ عجيبةٌ . وأما طرقُ المدينةِ فهي ليستْ مثلَ البلادِ الأوروبيةِ الحديثةِ ، إذ أنَّ مقاييسها غير منتظمةٍ .

---

(١) كذا وردت ، والمراد مدينة سالزبورغ (Salzburg) ، وتقعُ غربَ وسطِ النمسا ، على مقربة من حدود ألمانيا الغربية وعلى بعدِ ١٢١ كيلومترًا من ميونخ ، وتقعُ المدينةُ على ضفاف نهر سالزاك (Salzach River) على الحدود الشمالية لجبال الآلب ، وقد كانت سالزبورغ قديمًا مستعمرةً رومانية ، واسمها الحالي -الذي يعني قصر الملح- هو نسبة إلى مناجم الأملاح في تلك المنطقة . وتشتهرُ المدينة بتاريخها الموسيقي العريق حيثُ إنها مسقطُ رأس الموسيقار الشهير موزار كما تمتازُ بأبنيتها الجميلة ذات الطراز المعماري الفريد . للاستزادة راجع :

"Salzburg" *The Encyclopedia Americana*, 1982, 24/174.

(٢) كانت بافاريا (Bavaria) زمنَ رحلة محمد صادق رفعت باشا دولةً مستقلةً ، حيثُ برزت كثالث أقوى دولة جرمانية بعدَ كل من النمسا وبروسيا وذلك من خلال الأراضي التي ضُمّت إليها في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥م ، حيثُ كانت بافاريا قد انضمت إلى تحالف الأمراء الجرمانيين ضدَّ نابليون مما عزّزَ قوتها وجعلها تحظى بأهمية كبيرة ، وبافاريا اليوم هي كبرى ولايات ألمانيا ، وتبلغُ مساحتها ٧٠,٥٤٩ كيلومترًا مربعًا ، وتمتاز بجمالها الخلّاب وقلاعها الكثيرة وأريافها الجبلية مما جعلها وجهة سياحية هامة . للاستزادة راجع :

Louis L. Snyder, "Bavaria" *The Encyclopedia Americana*, 1989, 3/373-376.

ويوجدُ في الجانبِ الشَّمالي من المدينة جبلٌ كبيرٌ ، ويتمُّ المرورُ خلاله عن طريقِ شقٍّ في وسطهِ ، فسلكنا ذلك الطريقَ بُغيةَ زيارةِ مدينةِ ميونخ[1] ، وهي مقرُ حكومة بفاريا آنفةِ الذكرِ .

وميونخ مدينةٌ جميلةٌ ، وجهاتها الأربع مقدار ساعة من السُّهولِ المستويةِ والأماكن الشَّاسعةِ ، وفي المدينةِ نهرٌ كبيرٌ سريعُ الجريان ، كما أنَّ طرقاتِ المدينةِ الحديثةَ واسعةٌ ومنتظمةٌ ، ويجري إعمارُ المدينةِ وتوسيعها وذلك بإنشاءِ الكنائسِ الكبيرةِ والمعاهدِ وسائرِ المباني ، حتَّى إنه ثمَّةَ سراي عظيم وفي داخله كنيسةٌ مزيَّنةٌ للغاية[١٥] ، كما يوجدُ خارجَ المدينةِ موضعٌ من بناءين عظيمين يقال إنَّه متحفٌ[2] ، ويوجدُ في أحدهما أصنام عتيقة وفي الآخر تصاوير أخرى عديدة .

ومجموعُ الأبنيةِ أربعةٌ بدأ إنشاؤها منذ ثمان أو عشر سنين ، وقد اكتملَ بناؤها قبلَ نحو عامين ، وذلك بأنواعِ المرمرِ والجدرانِ المطليةِ بالذهبِ والأسقُفِ المزيَّنةِ والمنتظمةِ على نحوٍ فاخرٍ ، ولاَ يوجدُ في سائرِ بلادِ أوروبا من بين الأبنيةِ المنشأةِ حديثًا ما هو مُشابهٌ لها .

وعلمنا أنَّه أُنفِقَت أموالٌ كثيرةٌ على الأبنيةِ المذكورةِ والتصاوير والأصنام

(١) تقعُ مدينةُ ميونخ في جنوب ألمانيا على ضفةِ نهر ايسار (Isar) ، وهي عاصمة ولاية بافاريا (Bavaria) ، وتبعدُ عن فيينا (مُنطلق الرحلة) ٢٢٥ ميلًا ، ويعودُ تاريخ المدينة إلى القرن الثالث عشر الميلادي حيثُ كانت مدينةً محاطة بالأسوار ، اتخذها لويس الرابع قيصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة مكانًا لإقامته في أوائل القرن الرابع عشر ، وعمل على إعادة إعمارها وتوسيعها سنة ١٣٢٧م وذلك بعدَ أن تعرضت المدينة لحريق كبير ، وفي أوائل القرن الخامس عشر أصبحت المدينة عاصمة لبافاريا . بلغ عدد سكان المدينة سنة ١٨٤٦م مئة وثلاثة عشر ألفًا وثلاثمئة وأربع وثمانين نسمة . للاستزادة راجع :

"Munich", *The Encyclopedia Britannica*, 1885, 15/678-680.

(٢) في الطبعة الأولى : غالري (جاليري) .

المرقومة[١] ، وكذلك فإنّ مجموعَ القوةِ العسكريةِ النظاميةِ والرديفة[٢] للحكومة المذكورةِ يبلغُ مئةَ ألف نفر عندَ الحاجة ، في حين أنَّ عددَ سكّانِ البلادِ لا يكادُ يصلُ إلى أربعمئة ألف على وجهِ التَّخمين ، وإنَّ المرءَ ليعجبُ من أمرِ هذهِ البلاد ؛ فبرغم صغرِها إلاّ أنّهم أنشأوا فيها أبنيةً عظيمةً .

والحقيقةُ أنَّ مدينةَ ميونخ من حيثُ الموقع مرتفعةٌ ألفًا وخمسمئة قدم عن أرضِ فيينا ، ولهذا فإنَّ شتاءَها شديدُ البرودةِ ، فبرغم أننا كنّا هناك في أواسطِ شهرِ يوليو إلاّ أنَّ البردَ كان قارسًا وكان المطرُ يهطلُ بغزارةٍ بحيثُ لم نتمكنْ من السيرِ والتنزُّه على نحوٍ لائق .

وعددُ سكانِ ميونخ قليلٌ وإن كان يتزايدُ في أحدِ نواحيها ، وبرغم ما تمَّ في المدينةِ من إعمارٍ إلاّ أنَّ قُراها وقَصَبَاتها خرابٌ مقارنةً بسائرِ بلادِ أوروبا .

ولم يتمْ إلى الآن أرسالُ سفيرٍ أو مأمورٍ من طرفِ الدّولةِ العَلِيَّة في البلادِ الواقعة في الجهةِ الجنوبيةِ ، بل إنّه لم يأتِ إليها أحدٌ من عامّةِ المسلمين ، ولذا فإنّه عندَ مرورنا قد استقبلونا بكاملِ الاهتمامِ والبشاشةِ وأظهروا لنا الامتنان .

الوصول إلى إنسبورغ وترينتو ضمنَ ولاية تيرول

وفي نهايةِ الطّريقِ المذكورِ تقعُ إيالة تيرول ، وهي ضمن إدارة دولةِ فيينا ، وتُعدُّ بمثابةِ الحدّ الفاصلِ ، إذ توجدُ استحكاماتٌ طبيعيةٌ بواسطةِ جبال عديدة مرتفعة ، ومن هناك كانَ وصولنا مُيسَّرًا إلى مدينةِ إنسبورغ[٣] ، وهي واقعةٌ في سَهلٍ مثلَ

(١) أي المذكورة .

(٢) أي الاحتياطية .

(٣) كذا وردت ، والمراد مدينة انسبروك (Innsbruck) ، وهي عاصمة إقليم تيرول (Tyrol) غربَ النمسا ، وتقعُ على الضفة الجنوبية لنهر الإن (Inn) ، وقد حظيت المدينة تاريخيًا بأهميّة كبيرة بسببِ موقعها الجغرافي كنقطةِ وصلٍ محوريّة مما جعلها عاصمة لدوقية تيرول أوائل القرن الخامس عشر ، ثمَّ انتقلت إلى آل هابسبورغ ، وبقيت المدينة نمساويّة باستثناء الفترة المتراوحة ما بين عامي ١٩٣٨م و١٩٤٥ حينَ أُلحقتْ بألمانيا . وتعدُّ المدينة مركزًا ثقافيًا وتعليميًا وسياحيًا هامًا في البلاد ، وتشتهرُ بالسياحة الشتوية نظرًا لقربها من جبال الآلب . انظر :

Norman J. G. Pounds, "Innsbruck" *The Encyclopedia Americana*, 1983, 15/189.

الوادي ، وعلى أطرافها الأربعةِ جبالٌ شاهقةٌ ، ومحاطة ومشمولة من الداخل بأنهار كبيرة ، وفيها قصورٌ عظيمةٌ ، وبعضُ الكنائسِ الكبيرةِ ، والبساتين المعمورةِ والجميلة للغاية ، وطقسُها معتدلٌ مقارنةً بطقسِ بافاريا ، وإن كانت هذه البلدةُ أيضًا [١٦] باردةً حتّى إنَّ الثلوجَ تُرى في الصيفِ فوقَ الجبالِ آنفةِ الذكر .

وسيقومُ أهالي تيرول بإجراءِ مراسمِ البيعةِ للإمبراطور المُشارِ إليه في مدينةِ إنسبورغ ، وعندَ ورودنا كانَ الإمبراطورُ قد وصلَ للتوِّ ، ولأجلِ إجراء المراسمِ المذكورة فإنَّ المدينة كانت مزيَّنةً .

وفي اليومِ التّالي جاءَ من أهالي إيالةِ تيرول عساكر احتياط ، وكان كلّ طابورٍ على هيئةٍ واحدةٍ من حيثُ اللباس ، وبلغَ عددُ العساكرِ نحو عشرة أو خمسة عشر ألف نفر ، وكان للإمبراطورِ المُشارِ إليه موكبٌ مخصوصٌ وعربةٌ مُذهَّبةٌ على نحوٍ رائعٍ تجرُّها ستة خيول ، حيثُ توجَّه إلى الكنيسةِ لأجل إجراء مراسمِ البيعةِ ، وفي المساءِ فإنَّ المدينةَ المذكورةَ كانت مزيّنةً بالقناديلِ ، وجرتِ الاحتفالاتُ بهذه المناسبة .

ومن هناك تحرَّكنا ، حيثُ يوجدُ بين أراضي إيطاليا وأراضي النمسا فاصلٌ من الاستحكاماتِ الطبيعيّةِ القويّةِ والمتصلة فيما بينها بالعديدِ من الجبالِ المرتفعةِ ، وبعدَ مرورنا بها وصلنا إلى مدينةِ ترنتو[١] ، وهي مقرُّ ولايةِ تيرول الإيطالية ، ورأينا في أثناءِ

---

(١) تقع مدينةُ ترنتو (Trento) في إقليم ترنتينو ألتو أديجي (Trentino-Alto Adige) شمال إيطاليا ، وقد أنشأ المدينة الغاليون (Gaul) ، وربّما القبائل الريتيّة (Raeti) ، وتوالى على حكم المدينة الرومان والقوط واللومبارد ثمّ أصبحت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وخلال حملات نابليون على إيطاليا تمّ احتلال المدينة مرارًا من قبل الفرنسيين ، وبعد معاهدة سلام لونيفيل (Lunéville) سنة ١٨٠١م أصبحت المدينة ضمنَ أملاك الإمبراطورية النمساويّة . وبعد فترة من الحكم النمساوي والبافاري قامت القوات الفرنسية ومتمردو تيرول (Tirol) بمهاجمة المدينة واحتلالها خلال عام ١٨٠٩م ، وأصبحت تابعة إلى تيرول تحتَ سيطرة نابليون ، وبقيت جزءاً من مملكة إيطاليا حتّى أواخر عام ١٨١٣م حينَ هُزِمَت قوات نابليون وعاد النمساويون إلى الاستيلاء على المدينة . شاركت المدينة خلال ثورة عام ١٨٤٨م سعيًا للاستقلال ، وفي أواخر سنة ١٩١٨م ألحقت بمملكة إيطاليا (جمهورية إيطاليا حاليًا) . للاستزادة انظر :

Lino Bertagnolli, "Trento", *Enciclopedia Italiana*, 1937, Vol.34, pp.268-269.

مرورنا جبالًا أكثرها من المرمرِ ، وتوجدُ بين تيرول الإيطالية وبلادِ النمسا قلعةٌ عظيمةٌ وخنادق مبنيةٌ من الحجرِ . وتقعُ مدينةُ ترنتو على سهلٍ بينَ جبلين ، ويمرُّ بها نهرٌ كبيرٌ دائمُ الجريان .

وإن كانت المدينة كبيرة جدًا ، إلاَّ أنها محلٌ قديمٌ وخرابٌ ، ولا يوجدُ ما يدلُّ على آثارِ العمران ، سوى أنه توجدُ بعضُ الأبنيةِ القديمةِ الجميلةِ التي تعودُ إلى زمنِ الوثنيّة ، ورأينا جِسرًا مرتفعًا يربطُ بين جبلين .

الوصولُ إلى مدينةِ فيرونا

ومن هناك مَرَرْنا وعبرنا حتّى وصلنا إلى مدينةِ وورونه[1] ، وهي كذلك مدينةٌ قديمةٌ ، وفيها الكثيرُ من الأبنيةِ الكبيرةِ والقديمةِ ، وكنيسةٌ رحبةٌ رائعةٌ ، ويوجدُ في هذه المدينة جسرٌ كبيرٌ ومسرحٌ قديمٌ مبنيٌ من الحجر يتسعُ لخمسين أو ستين ألفَ شخصٍ . والأصلُ أنَّ عمرَ هذه البلدةِ أكثرُ من ألفٍ وخمسمئة سنةٍ ، لكنَّها تعرضتْ للكثير من الدمارِ زمن نابليون المشهور ، ولذا فإنها تبدو خرابًا اليومَ ، ومع ذلك فإنَّه -لموقعها الملائم- يقطُنُها نحو خمسين أو ستينَ ألف نسمة ، وفيها كلُّ أنواعِ الفاكهة . وفي أطرافِ المدينةِ خنادق [١٧] حيثُ تمَّ إعمارِ المدينةِ وتقويتها من خلالِ وضع وتأسيسِ ما يلزمُ من تحصينات جديدة ، ولكن هذه المرة من طرفِ دولة النمسا .

---

(١) كذا وردت ، ويقصد مدينة فيرونا (Verona) ، وتقعُ هذه المدينة في إقليم الفينيتو (Veneto) شمال إيطاليا ، تعاقب على حكمها الغاليون (Gaul) والرومان واللومبارديون ، وكانت المدينة أثناءَ زيارةِ الرحالةِ لها واقعةً تحتَ حكم النمسا ، ففي سنة ١٨٠١م وبموجبِ معاهدةِ سلام لونيفيل تم تقسيم المدينة بين إيطاليا والنمسا بحيثُ يكون نهر أدجي (Adige) هو الحد الفاصل ، وفي عام ١٨٠٥م أصبحت المدينة جزءاً من مملكة إيطاليا ، ثم عادت لتصبح تحتَ حكم النمسا من عام ١٨١٤م وحتّى عام ١٨٦٦م لتعود بعد ذلك إلى إيطاليا التي قد أصبحت آنذاك موحدةً . وتشتهرُ المدينةُ بأسوارها الحصينة ، والتي حالت دونَ تحريرها من أيدي النمساويين في عام ١٨٤٨م وعام ١٨٥٩م ، وتحفلُ المدينة بالكثير من المعالم التاريخيّة والمواقع الأثريّة . للاستزادة انظر :

G.Fio et el, "Verona", *Enciclopedia Italiana*, 1937, Vol.15, 180-186.

السفرُ من فيرونا إلى ميلانو

ومن هناك توجّهنا إلى ميلان ، لأنَّ بلادَ إيطاليا ليست كسائرِ ممالك النمسا ؛ فأراضي إيطاليا مستويةٌ وخصبةٌ ، ولذا فإنَّه توجدُ بوفرةٍ كلُّ صنوفِ الفاكهةِ والخضروات . ورأينا في طريقنا مواضعَ جميلةً معمورةً بالبساتينِ والحدائقِ ، ومررنا ببحيرةٍ تُدعى غرده[1] ، وهي في الواقع كبيرةٌ ، إذ يبلغُ طولها أربعين ميلًا وعرضُها عشرين ميلًا . وتوجدُ في مدينةِ وكسيارة[2] قلعةٌ كبيرةٌ محاطةٌ ومحصَّنةٌ من جهاتها

---

(١) تقعُ بحيرةُ بحيرة غاردا (Lago di Garda) في شمال إيطاليا في منتصفِ الطريق الواقع بين مدينتي البندقيّة وميلانو ، وهي أكبر بحيرة في إيطاليا ، ويعدُّ نهرُ ساركا (Sarca) الرافد الرئيسي لها ، وتنتشرُ بعضُ المزروعات على ضفاف النهر مثل أشجار الزيتون والحمضيّات والسرو والدفلى والكاميليا والغار ، كما تنتشرُ المزروعات بكثرة على الضفاف الجنوبية من النهر وبخاصة أشجار الزيتون والحمضيّات . وتعتبرُ مياه هذه البحيرة ملائمة لصيدِ الأسماك ، الذي يعد واحدًا من المصادر الرئيسة التي تعتمدُ عليها المدن المحاذية للنهر مثل سيرميونه (Sermione) . وتوجدُ في بحيرةِ غاردا أربعُ جزر ، أكبرها جزيرة غاردا (Isola di Garda) على مدخلِ خليجِ سالو (Salò) تعتبرُ البحيرة اليوم مقصدًا سياحيًا هامًا . للاستزادة انظر :

Riccardo Riccardi, "Garda" *Enciclopedia Italiana*, 1932, Vol.16, pp. 378-380.

(٢) كذا وردت ، ولا شك أنه يريد مدينة بسكييرا (Peschiera) ، وهي مدينةٌ من أعمال فيرونا ، وتقعُ على بعدِ ٢٤ كيلومترًا منها ، وتُسمّى بسكييرا دل غاردا (Peschiera del Garda) ، بُغيةَ تمييزها عن محافظتين اثنتين تحملان الاسمَ نفسه ، إحداهما في بريتشا (Brescia) والأخرى على مقربةٍ من ميلانو ، كان عدد سكان البلدة سنةَ ١٨٧١م نحو ألفين وأربعمئة نسمة ، بينما يبلغ اليوم نحو عشرة آلاف نسمة . وكانت المدينة تحظى باهتمامِ الرومان بسببِ موقعها الاستراتيجي ، فبنوا فيها الحصون ، وتمّ تحصينها كذلك في أوائل القرن الثالث عشر وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر تحتَ حكم سلالةِ ديلا سكالا (Della Scala) ، كما عملَ البنادقة على تحصينِ المدينة حين غدت تحتَ سيطرتهم أواسط القرن السادس عشر . أصبحت مدينة بسكييرا خاضعةً للنمسا عام ١٧٩٧م ، حيثُ عزّزوا تحصيناتها ، لتصبحَ بعدَ ذلك بوقت قصير تحتَ حكم الفرنسيين حيثُ بنوا فيها القلاعَ ، وعادت المدينة مرةً أخرى ضمنَ بلاد النمسا سنة ١٨١٥م . وخلال الاضطرابات التي اجتاحت أوروبا =

الأربع بهذه البحيرةِ ، وجعلوا في داخلها ثكنات للعساكرِ النّظامية .

وبعدَ ذلك وصلنا إلى مدينةِ سن جانو[١] وهي واقعةٌ على أطرافِ البحيرة المذكورةِ ، ومعمورةٌ بالمصايفِ السّاحليّة ، ولما كنّا في أيام الصّيفِ انتابني الشّوقُ وتذكّرتُ -لما في القلب من حبٍّ للوطن- البيوتَ السّاحليّةَ على ضفافِ البوسفور ، وبلطفٍ وعنايةٍ من حضرةِ الإمبراطور أَذِنَ لنا بقضاءِ ليلةٍ في مطعمٍ فخمٍ على السّاحل ، ودَعَونا له بمديدِ العُمرِ والسّعادة .

ويوجدُ في هذه البحيرةِ قوارب وسفن بخارية وقوارب أخرى ، وتنزّهنا في بعضِ الأماكنِ الجميلةِ راكبين القواربَ .

مدينة بريتشا

وفي اليوم التّالي وصلنا إلى مدينةِ بريتشا[٢] ، وهي مدينةٌ كبيرةٌ ومعمورةٌ ، وفيها كنيسةٌ رحبةٌ مكسوّةٌ بالمرمرِ الخالصِ ، كما توجدُ فيها سائرُ القصور الفخمة . ومن هنا أيضًا سافرنا لأنَّ أكثرَ بلادِ إيطاليا مستويةٌ وبالأخص مدينة ميلان ، فهي أكثر استواءً

= عام ١٨٤٨م تمّ الاستيلاء على المدينةِ من قبل بيبمونتي (Piemonte) ثمّ أصبحت جزءاً من مملكة إيطاليا سنةَ ١٨٦٦م . للاستزادة انظر :

Alberto Baldini, "Peschiera", *Enciclopedia Italiana*, 1935, Vol.26, pp. 947-948.

(١) لعلّ الأمر اختلطَ على الرحالة ؛ فمدينة سان جانو (Sangiano) المذكورة تقع على مقربة من بحيرة ماجّوري (Lago Maggiore) التي سيردُ ذكرها لاحقًا وليسَ بحيرة غاردا . وتقع هذه المدينة في مقاطعة فاريزي (Varese) شمال إيطاليا .

(٢) تعدُّ مدينة بريتشا (Brescia) ثاني أكبر مدن إقليم لومبارديا (Lombardia) من حيثُ عدد السكان ، تعاقبَ على حكمها الغال والرومان والقوط واللومبارديين إضافة إلى الأُسَر الحاكمة المحلية إلى أن أصبحت المدينةُ تابعةً للبندقية سنةَ ١٤٢٦م وبقيت كذلك حتى سقوط جمهورية البندقية سنة ١٧٩٧م حيثُ انتقلت إلى النمساويين ، وفي عام ١٨٥٩م أصبحت المدينة جزءاً من مملكة إيطاليا . للاستزادة انظر :

Elio Migliomi et al, "Brescia", *Enciclopedia Italiana*, 1930, Vol. 7, pp. 806-815.

وتنظيمًا ، وفي أطرافها وأنحائها أشجار مثمرةٌ وغيرُ مثمرةٍ وأنواعُ البساتين التي تشبهُ جنّةَ إرَم ذاتِ العِمَادِ[1] .

وفي اليوم السّابع عشر من انطلاقنا من فيينا ، أي في الثّامن والعشرين من جمادى الأولى[2] وهو يومُ السّبتِ وصلنا إلى ميلان ، وأُجريت لنا مراسم التشريف ، وبرعايةِ [١٨] ملكِ الملوك وعنايته تمّ إيواؤنا وتنظيم شؤوننا في سفارة الدولةِ العليّة ، كما أنّه كان في ميلان بعضُ الجنرالات والضبّاط رفيعي المستوى لتأديةِ مراسمِ الاستقبالِ ، فجاؤوا إلى السَّفارةِ وقدَّموا لنا الرعايةَ اللازمةَ .

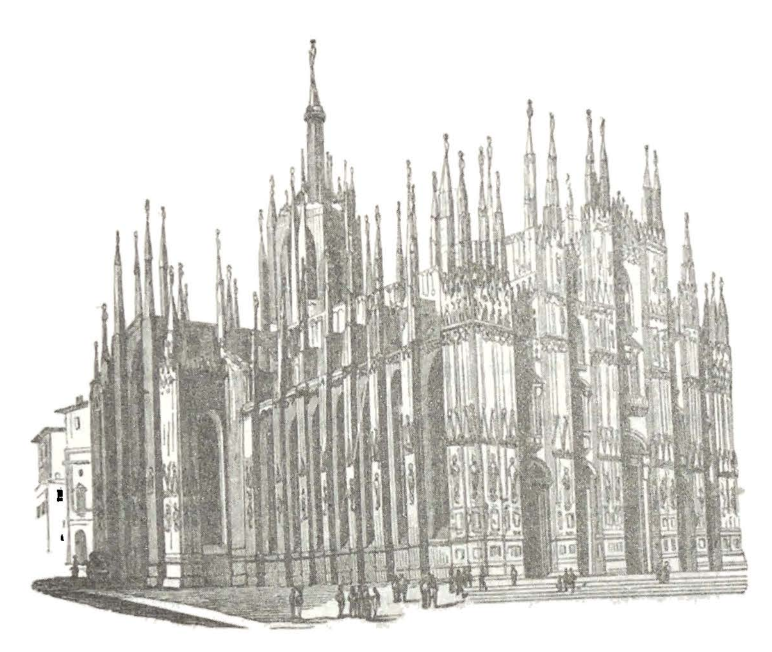
والمدينةُ المذكورةُ هي أكثرُ ممالكِ النمسا إعمارًا ، وتحظى بأكثرِ العنايةِ ، وهي كبيرةٌ وجميلةٌ ، ويسكنها مئةٌ وخمسون ألفَ نسمةٍ على وجه التّخمين ، وأطرافها الأربعة مُحصَّنةٌ بخنادقَ أشبه بالقلاعِ ، ويوجدُ داخلَ المدينةِ نهرٌ دائمُ الجريان وأبنيةٌ عظيمةٌ ، حتى إنه توجدُ كنيسة تُدعى طومه[3] وهي عظيمةٌ ومزيّنةٌ من الداخلِ والخارجِ بأنواعِ النقوشِ من المرمرِ ، وهي مشهورةٌ لأنه يندرُ وجودُ مثيلٍ لها في سائر أوروبا .

---

(١) جاءَ ياقوت الحموي في معجمه على ذكر إرَم ذاتِ العمادِ : «وقيل أن إرَمَ هي مدينة ، فمنهم من قال هي أرض كانت واندَرَسَتْ ، ومنهم من قال هي الاسكندرية ، وأكثرهم يقولون : هي دمشق ، وروى آخرون أن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد باليمن بين حضرموت وصنعاء ، من بناء شدَّاد بن عاد ، ورَوَوا أن شدَّادَ بن عاد كان جبارًا ، ولما سمع بالجنة وما أعدَّ الله فيها لأوليائه من قصور الذهب والفضة والمساكن التي تجري من تحتها الأنهار ، والغرف التي من فوقها غرف قال لكُبَرَائه : إني متخذٌ في الأرض مدينة على صفةِ الجنَّة ، ومكث في بنائها خمسمئة عام ، وأراد الله أن يتخذَ الحجة عليه وعلى جنوده فأرسل إليه هودًا عليه السلام أتاه فدعاه إلى الله تعالى ، وأمره بالإيمان فلم يرتدع عما كان عليه ، ووافاه الموكلون ببناء المدينة وأخبروه بالفراغ منها ، فعزم على الخروج إليها في جنوده ، ولما قرب شدادٌ من المدينة جاءت صيحة من السماء فمات هو وأصحابه أجمعون» . للاستزادة انظر : شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، **معجم البلدان** ، ج١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص : ١٥٥-١٥٧ .

(٢) وهو الموافق للتاسع عشر من أغسطس سنة ١٨٣٨م .

(٣) الكنيسة المذكورة هي كاتدرائية ميلانو (Duomo di Milano) ، التي بدأ بناؤها أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، وتعدُّ أكبر كاتدرائيات إيطاليا اليوم ، وتحوي الكثير من الآثار الفنيّة الأصيلة .



رسم لكاتدرائية ميلانو

Resource: Cesare Cantù (1858),

Grande Illustrazione del Lombardo-Veneto,

Milano, Corona e Caimi Editori, Vol. 1, p. 38

مدينةُ مونسا وقصرها وحديقتها

وأطرافُ مدينةِ ميلان الأربعة سهلٌ مستوٍ مساحتهُ نحو خمسين ساعة ، وعلى بعدِ ساعةٍ ونصفِ السَّاعة من ميلان تقعُ مدينةُ مونسا[1] ، وبالقربِ منها شُيِّدَ قبل

---

(١) تقعُ مدينةُ مونسا (Monza) في إقليم لومبارديا (Lombardia) شمال إيطاليا ، وتبعد عن ميلانو نحو ١٤ كيلومترًا ، ووفق الكشوفات الأثرية فإن الوجود البشري في مونسا يعودُ إلى العصر البرونزي ، ثمَّ حلَّ فيها الرومان ، إلا أن المدينة لم تكتسب أهمية حقيقيّة سوى في عهد اللومبارديين . =

خمسين سنةً قصرٌ عظيمٌ وحديقةٌ ، والحقيقةُ أنَّ هذا القصرَ وإن كان عظيمًا يشتملُ على بضع مئاتِ الغرف إلاّ أنه ليسَ فخمًا جدًا ، بيدَ أنَّ الحديقةَ المذكورةَ جميلةٌ للغاية وواسعةٌ بحيثُ يلزمُ لأجلِ التنزه فيها نحو ثلاث ساعات ، وهي محاطةٌ بجدار ، ومن ثمّ عملوا كلَّ شيء ؛ ففي كلِّ مكانٍ قلّدوا الخِلْقةَ الطبيعيةَ ؛ فهناكَ المروجُ والهضابُ وأنواعُ الزهورِ والأشجار ، وأنفقوا الكثيرَ من المالَ لأجلِ الماءِ الجاري ، حتّى إنَّهم جعلوا تحتَ الأشجارِ المتساويةِ الينابيعَ والبحيرات والجداولَ حيثُ يجري منها الماءُ ويسيلُ . وكذلك جعلوا على الأطرافِ الرّياضَ والحدائقَ ووضعوا فيها الحيوانات لاستعمالها عندَ الحاجةِ في الصيدِ والمطاردة .

وتوجدُ كذلك الأزهارُ والأشجارُ الغريبةُ ، حيثُ جلبوا من آسيا وإفريقيا وأمريكا سائرَ أنواعِ الأشجارِ المثمرةِ وغيرِ المثمرةِ . حتّى إنه رأينا من غرائبِ صُنع اللهِ نوعًا من الزُّهور نَشَأَ ونَمَا دونَ تربةٍ أو ماء ، بل بواسطةِ الهواء فحسب ، وذلكَ بأن وضعوا جذورَه في قفصٍ مشبَّك ، ويوجدُ داخل هذا القفصِ حاليًا تسعون مُزارعًا ، ويعملون بجدٍّ ويقومون على رعايته وإعماره ، وكذلك فإنّ الدولةَ تُولي هذا الأمرَ عنايةً كبيرةً ،

= ونتيجةً لقربها من ميلانو كانت المدينةُ تاريخيًا بمثابةِ مصيفٍ ملكيّ ، وقد اكتسبت أهميّةً خاصّة في فترتين من الزمان : الأولى في القرن السابع في زمنِ ملكةِ اللومبارد ثيوديليندا (Teodolinda) وذلك من خلال الكاتدرائيّة الكبيرة والغنية بالمقتنيات الثمينة وبالأخص الخزنة وتاج لومبارديا الحديدي (Corona Ferrea) ، وأما الفترة الثانية فهي الممتدّة من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، حيثُ أصبحَ التاج الحديدي يُستخدمُ لتتويج ملوكِ إيطاليا من برنغار (Berengario) إلى نابليون وفرديناند الأول ، مما أكسبَ المدينةَ شهرةً وهيبةً ، بل وامتيازاتٍ سياسيّة هامّة أيضًا . وبعدَ اندلاع ثورة عام ١٨٤٨م وطردِ الحاميات النمساوية وأسرِ بعضها ، شارك أهالي مونسا في السعي لتحقيق الاستقلال الوطني ، وتبعَ ذلك تطور تجاري وصناعي ملحوظ . وشهدت المدينة نموًا سكانيًا وتوسعًا عمرانيًا كبيرًا منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، حيثُ كان عدد سكانها ١٧ ألفًا سنةَ ١٨٩٠م وارتفع خلال عشر سنوات ليصبح ٢٧,٥٠٠ نسمة ، ويبلغُ عددُ السكان اليوم نحو ١٢٢,٨٠٠ نسمة . للاستزادة انظر :

Carlo Volpati, "Monza" *Enciclopedia Italiana*, 1934, Vol.23, pp. 787-788.

بينما -ولله الحمدُ على عنايته الموصولة- فإنَّ عنبَ الشَّاويش[1] الموجود بوفرة في دار السعادة[2] [١٩] ليسَ له مثيلٌ لأنَّ هواءَها وماءَها وموقعَها خيرٌ من كافَّة أقاليمِ الدنيا وممالكِها ، وهذه مَسألةٌ واضحةٌ .

مكتبة مدينة مونسا وما فيها

وتوجدُ داخلُ المدينةِ ثكنةٌ عسكريّةٌ كبيرةٌ وسائرُ الأبنيةِ الفخمة ، كما توجدُ مكتبةٌ عظيمةٌ وفيها الكثيرُ من الكتبِ الإسلامية ؛ ففيها المصحفُ الشَّريفُ ، وتفسيرُ البيضاويّ النَّفيس[3] ، واطَّلعنا على رسالتين أُرسلَتا إلى بابا روما وذلك زمنَ فرارِ المرحومِ الأميرِ جِم -جعلَ اللهُ الجنَّةَ مثواه- شقيقِ السُّلطان بايزيد[4] ، والرسالتان

---

(١) وهو عنبُ اسطنبول الحلو ، كان يُزرعُ في نواحي أسكودار (Üsküdar) وقاضي كوي (Kadıköy) ، وقد جُلِبَ هذا العنب في الأصل من الطائف قربَ مكّة . انظر :

Redhouse, James W.(1996), *A Turkish and English Lexicon: Shewing in English the Significations of the Turkish Terms*, Beirut, Librairie du Liban, 711.

(٢) أي اسطنبول .

(٣) هو كتاب «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» المشهور بتفسير البيضاوي نسبةً لواضعهِ عبدالله بن عمر البيضاوي (ت . ١٢٩٢م) .

(٤ وُلِدَ الأميرُ جم (Jem) في أدرنة في الثاني والعشرين من ديسمبر عام ١٤٥٩م ، وكانت أمه جاريةً في حريم السلطان محمد الفاتح ، وحينما بلغَ العاشرةَ من عمره أُرسلَ مع اثنين من مربيه حاكمًا على سنجق قسطموني ، وأظهر في ذلك العمر المبكر اهتمامًا واضحًا بالأدب الفارسيّ ، وفي أواخر عام ١٤٧٤م أصبحَ حاكمًا على القرمان في قونية خلفًا لأخيه العليل مصطفى . ولما تُوفي السلطان محمد الثاني أواسط سنة ١٤٨١م وتناهت الأخبارُ إلى الأمير جم سار إلى بورصة واحتلها عنوةً ، ودعا أخاه الأكبر بايزيد الثاني الذي تولّى العرشَ لتقسيم البلاد فأبى ، وحاربه ودخل بورصة ففرَّ الأمير جم إلى القاهرة ثمّ إلى حلب ، ولجأ سنة ١٤٨٢م إلى جزيرة رودس (Rodhos) عند رهبان القديس حنا الأورشليمي أملًا في استعادة قوته وانتزاع الحكم على بعض الولايات من أخيه السُّلطان بايزيد الثاني ، حيثُ بقي مقيمًا في الجزيرة إقامة جبرية بعد إبرام اتفاق بين السلطان بايزيد الثاني =

-اللتان ما زالتا محفوظتين إلى الآن في موضع مُوقَّرٍ- مُزيّنتان في القِسمِ العُلويّ منهما بالطُّغراء(١) السّلطانيةِ الغرّاءِ المذهَّبة .

= وكبير الرّهبان يقضي بإبقاء الأمير جم في الجزيرة مقابل التعهد بعدم التعرض لاستقلالها ودفع مبلغ من المال سنويًا للرهبان ، وبالفعل تحفظ كبير الرهبان على الأمير جم ولم يقبل تسليمه إلى ملك المجر وإمبراطور ألمانيا اللذين طلبا إطلاق سراحه ليستعملاه أداة ضغط على الدولة العثمانية ، لكنه ، أي كبير الرهبان ، أرسله إلى فرنسا يقيم في مدنها مدة سبع سنوات ، ثم بعد ذلك سلّمه إلى البابا إينوسنت الثامن الذي بدوره طلب مبلغًا من السلطان بايزيد الثاني مقابل التحفظ عليه ، وبالتالي كان الأمير جم يمثل ورقةَ ضغطٍ في أيدي القوى الغربية ضدّ الدولة العثمانية ، وفي سنةِ ١٤٩٤م جاء ملك فرنسا شارل الثامن إلى روما وأجبر البابا على تسليم جم له ، واصطحبَه في حملته على نابولي ، وفي طريقه إلى هناك تُوفّي الأمير جم في أواخر فبراير من عام ١٤٩٥م ، وانتشرت الشائعات بأنّ البابا كان قدّ دسَّ السمَّ له قبل تسليمه إلى الملك شارل الثامن . للاستزادة انظر :

Halil Inalcık, "Djem", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 2 (Leiden: Brill, 1965), pp. 529-530

وانظر :

Setton, Kenneth M, The Papacy and the Levant, (1204-1571) pp. 381-416.

ومن أوفى المراجع التركية الحديثة التي تناولت حياة الأمير جم وأعماله :

Münevver Okur Meriç (2006), Sultan Cem: Hayatı, *Esareti, Edebi Kisiligi, Eserleri, Siirleri*, PSY. Vakıf Sistem Matbaa Müdürlügü, Ankara.

(١) الطغرا (Tugrâ) هي العلامة أو الإشارة التي يوقعُ بها السُّلطان العثماني الفرمانات والرسائل السلطانية ، ويطلقُ عليها كذلك التوقيع والنيشان والعلامة ، ترافقها عادةً كلمات مثل : الهمايون والرفيع والشريف والغراء على نحو : التوقيع الرفيع ، النيشان الشريف ، الطغراء الغراء ونحو ذلك ، وأول مَن استخدمَ الطغراء هو السلطان أورخان غازي سنةَ ١٣٢٤م . للاستزادة راجع :

M, Ugur Derman, "Tugra", *Islâm Ansiklopedisi*, Istanbul 2012, Cilt 41, S.336-339.

مدينة كومو

ولمّا بلغَ الإمبراطورُ فيردناند الأول مدينةَ قومه[١] ، وهي على مسافةِ أربع أو خمس ساعات من ميلان ، فإنَّ البحيرةَ الكبيرةَ التي على أطرافِ المدينةِ كانت مُزينةً ليلًا ، ولما علمنا بذلك ذهبنا رفقةَ بعضِ السُّفراء إلى الموضع المذكور[٢] .

والحقيقةُ أنَّ المدينةَ المذكورةَ معمورةٌ جدًا ، وفيها بحيرةٌ كبيرةٌ ، ويوجدُ فيها كنيسةٌ قديمةٌ عظيمةٌ ، وطيلةَ تلك الليلةِ كانت المدينةُ مُزيّنةً بالقناديلِ الموقدة ، وكذلك كانت ضفافُ البحيرةِ المذكورةِ والقواربُ بل وأيضًا سفينةٌ بخاريةٌ مضاءةً جميعها بالقناديلِ ، كما جرتِ الاحتفالاتُ بإطلاقِ الألعابِ الناريّةِ .

متحف مدينةِ كومو والرسومات المحفوظةِ فيه

وقد علمنا أنَّ في المدينةِ المذكورةِ دارًا كبيرةً وقديمةً وفيها رسمٌ لحضرةِ المرحوم السُّلطان سليمان خان الأول[٣] جعلَ اللهُ الجنَّةَ مثواه ، فذهبنا قاصدينَ هذه الدارَ ،

---

(١) تقعُ مدينةُ كومو (Como) في إقليم لومبارديا (Lombardia) شمال إيطاليا ، وتبعدُ عن ميلانو نحو خمسينَ كيلومترًا ، وتعدُّ واحدةً من أجملِ مدن هذا الإقليم وأكثرها أهميّة من حيثُ الصّناعة إذ تشتهر بصناعةِ الغزل والمنسوجات الحريريّة التي اشتهرت في كومو منذُ العصور الوسطى ، وقد كانت كومو واقعة تحت سيطرة النمسا منذُ عام ١٨١٥م وإلى غاية عام ١٨٥٩م حيثُ حُرّرتْ المدينةُ وأصبحت جزءًا من مملكةِ إيطاليا . للاستزادة راجع :

Manfredo Vanni et al., "Como", *Enciclopedia Italiana*, 1931, Vol.10, pp.981-984.

(٢) والبحيرة المقصودة هي بحيرة كومو (Lago di Como) وكانت تُسمّى قديمًا باسم لاريو (Lario) أو لاكوس (Lacus) ، وتُعدّ ثالث أكبر بحيرة في إيطاليا بعد بحيرة غاردا (Lago di Garda) وبحيرة ماجّوري (Lago Maggiore) بمساحة ١٤٥ كيلومترًا مربعًا ، ويبلغُ طول البحيرة من غيرا (Gera) في أقصى الشمال إلى كومو في أقصى الجنوب ستة وأربعين كيلومترًا . المرجع السابق : ص : ٩٨٤-٩٨٦ .

(٣) وُلدَ السلطان سليمان خان الأول المعروف بسليمان القانوني في السادس من نوفمبر عام ١٤٩٤م في طرابزون حيثُ كان أبوه سليم الأول مقيمًا بصفته سنجق بك ، وهناك قضى الأمير سليمان =

والحقيقةُ أنَّ هذا الرسمَ كان أولَ جلوسِ السُّلطان على العرش حيثُ يبدو وسيمًا وقد بدأتْ تنمو لحيتُه، وتعلو رأسَه المباركَ عمامةٌ كبيرةٌ يوسفيّةُ الشّكلِ[1] ويرتدي ثوبًا أخضرَ، ولما كنَّا هناك قرأنا الفاتحةَ على روحهِ لما قامَ به من فتوحاتٍ، وحينَ سألنا عن سبب وجودِ هذا الرَّسم هنا قِيلَ لنا إنَّ صاحبَ هذه الدَّارِ -وهو مؤرخٌ ومترجمٌ مشهورٌ يُدعى جوري- كان قد ترجمَ وكتبَ المدائحَ للسُّلطان سليمان خان الأول وسائر معاصريهِ من القادةِ، ولأجلِ مكافأتهِ فإن السُّلطان أمرَ بأن تُرسلَ رسوماتُه هذه إليهِ[2] [٢٠].

= طفولته حيثُ تولى تعليمه شخصٌ يُدعى خيرالدين أفندي، كما أنه تعلم صياغة الجواهر على يدِ حرفيٍّ يوناني. أصبح سليمانُ أولَ الأمر حاكمًا على ايالت كفه (فيوديوسيا) شرقي القرم، وفي عام ١٥١٣م أصبح سنجق بك لمنيسيا (Manisa)، وبقي كذلك حتّى توليه عرشَ السلطنة في الخامس عشر من سبتمبر سنة ١٥٢٠م، وبعدَ سنةٍ من توليه مقاليد الحكم بدأ سلسلة من الحملات في أوروبا وآسيا؛ عشر حملات في أوروبا وثلاث في آسيا، وكان السلطان بنفسه على رأس هذه الحملات، وبلغت الإمبراطورية العثمانية في عهده أوجَ قوّتها وازدهارها. للاستزادة راجع:

G. Veinstein, "Süleyman", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 9 (Leiden: Brill, 1997), pp. 832-842.

(١) العمامة اليوسفية هو الاسم القديم للعمامة عندَ الأتراك، ويُقالَ إن النبي يوسف عليه السلام هو أول من اصطنعها لنفسه وسمّيت باسمه، كما أن السلطان سليم الأول وسليم الثاني كانا يضعان هذه العمامة ولذا سُمّيت بالسليمية نسبةً إليهما. انظر:

W. Björkman, "Tulband", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 10 (Leiden: Brill, 2000), p. 615.

(٢) جوري المذكور هو باولو جوفيو (Paolo Giovio)، وهو طبيب ومؤرخ وأسقف إيطالي، وُلِدَ في مدينة كومو سنة ١٤٨٣م، ودرسَ الطب في مدينتي بافيّا (Pavia) وبادوفا (Padova) وذلك خلالَ الأعوام ١٤٩٨م و١٥٠٧م، ثمّ جابَ المدن الإيطالية والأوروبيّة، وكانت تربطهُ علاقات صداقة مع كبار رجالات القرن السادس عشر من ملوك وأمراء وبابوات وفنانين، وفي عام ١٥٣٦م أنشأ دارًا في كومو وجعلها متحفًا، واستقطبَت هذه الدارُ شخصيّات من كافّة أنحاء أوروبا الذينَ كانوا يأتونَ =

ورأينا في الدَّارِ المذكورةِ الكثيرَ من الرّسوماتِ، حتّى إنه توجدُ رسوماتٌ للصدر الأعظم سنان باشا[1] فاتحِ اليمن، وقابودان البحر

= بالهدايا النادرة، وفي عام ١٥٤٩م انتقلَ جوفيو إلى فلورنس ليصبح في خدمة حاكمها كوزيمو دي ميديشي (Cosimo de' Medici)، حيثُ تُوفي فيها سنه ١٥٥٢م، ولا يزال متحف باولو جوفيو قائمًا إلى اليوم في مدينةِ كومو، كما توجدُ مجموعة من اللوحات في معرض أوفيزي (Galleria degli Uffizi) في فلورنس. للاستزادة حولَ سيرته راجع:

T C Price Zimmermann, *Paolo Giovio: The Historian and the Crisis of Sixteenth-Century Italy*, Princeton, N.J., Princeton University Press, 1995 pp. 3-19.

وانظر:

Funda Berksoy (1999), "*Paolo Giovio' nun Dogu Ilgisi ve Osmanlı Sultan Portreleri Dizisi*", Aptullah Kuran Için Yazılar, Hazırlayanlar Çigdem Kafescioglu, Lucienne Thys-Senocak, YKY, Istanbul, 143-160.

(١) رأى سنان باشا النورَ في إحدى قُرى ألبانيا حوالي سنةَ ١٥٢٠م، وكانَ أبوه، واسمه علي، مسلمًا، تولّى سنان باشا وظيفة رئيس الذواقين (جاشنكر باشي) للسلطان سليمان القانوني، وترقّى فيما بعد ليصبح في رتبةِ ميري لواء لملطية وقسطموني وغزة وطرابلس الشام، ثم بكلربك على أرضروم وحلب، وفي أواخر سنة ١٥٦٧م أصبحَ واليًا على مصر، وخلال تلك الفترة رُقّيَ في رتبةِ وزير وسردار وذلك في أواسط أغسطس من عام ١٥٦٨م وعُهِدت إليه قيادةُ حملة اليمن لإخمادِ ثورةِ الإمام المُطهَّر، وقد نجحَ في إعادةِ سيطرة الدولة العثمانية على البلاد، ولهذا فقد أُطلِقَ عليه لقب فاتح اليمن. وفي ربيع سنة ١٥٧٤م قادَ حملةً عسكرية إلى تونس وأعادَ إخضاعها تحتَ سلطةِ الدولة العثمانيّة، ونتيجةً لنجاحه في مهمته رُقّيَ في مرتبةِ وزير رابع، ثم تولّى الصدارة العظمى أربع مرات: في أبريل ١٩٨٩م وفي يناير ١٥٩٣م ويوليو ١٦٩٥م ونوفمبر ١٥٩٥م وبقي في منصبه حتى وافته المنيّة في الثالث من أبريل سنة ١٥٩٦م تاركًا وراءه ثروة هائلة. انظر:

F. Babinger-[G. DÁVID], "Sinan Pasha, Khodja", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 9 (Leiden: Brill, 1997), pp. 631-632.

الشَّهير المرحوم خيرالدين باشا[١] وأخرى لأمراءِ مصرَ فائق بك[٢] والغوري[٣]

(١) وُلِدَ خيرالدين باشا حوالي سنةَ ١٤٦٦م في مدللي (ضمن مقاطعة ليسبوس اليوم في اليونان) ، حيثُ كان أبوه يعقوب ، وهو جندي في فرق السباهية ، قد استقرَّ بها بعد أن استولى العثمانيون على الجزيرة سنة ١٤٦٢م . كانت أمه -وفقًا لبعضِ الرواياتِ- أرملةً لراهبٍ يونانيّ . بدأ خيرالدين نشاطه في نقل البضائع في سفينةٍ له إلى ساروس (Saros) وتسالونيك (Salonica) ونغروبونته (Negroponte) ، وبعدَ أن منعَ السلطان سليم الأول الإبحارَ في بحر إيجه دونَ إذنه لمنعِ أخيه كوركود من الفرار ، جهّزَ خيرالدين قاربًا آخر في مدللي ، وقامَ على نقل الذُّرة من الشمال إلى إفريقيا ، ثم انضمَّ إلى أخيه الأكبر عرّوج ، وبقي في ظلّ أخيه في تونس ومن ثمّ في الجزائر ، التي أصبحَ يُسيطرُ عليها بعدَ وفاةِ عروج سنة ١٥١٨م ، حيثُ تصدّى للحملة التي قادها حاكم صقلية الإسباني هوجو دي مونكادا (Hugo di Moncada) ، وقد أذهل الأوروبيين بدهائه ، وصار يعرف في الأدبيات الأوروبي باسم بارباروسًا (Barbarossa) أي ذي اللحية الحمراء . وبعدَ نحو سنة أرسل طالبًا العونَ من السلطان سليم الأول فقبلَ السلطانُ الولايةَ على الجزائر وأرسلَ مرسومًا شريفًا (خطي شريف) مع العَلَم (سنجق) . ولا يعرفُ الكثير عن حياةِ خيرالدين الخاصة ، فقد تزوّجَ مرتين ، الأولى حينَ كان حاكمًا على الجزائر ، وأنجبت له زوجته الجزائرية ابنًا اسمه حسن ، والمرة الثانية تزوّج وعمره سبعة وسبعون عامًا من فتاةٍ إيطالية ذات ثمانية عشر ربيعا هي ابنة حاكم ريجّو (Reggio) . لقد أسهم خيرالدين باشا في إثبات القوّة البحرية للعثمانيين بتوليه مهام أميرال البحر للأسطول العثمانيّ ، وأصبحَ بطلًا تاريخيًا في الذاكرة التركيّة ، وإذا كان قد بثَّ الرعبَ في البحر الأبيضِ المتوسط إلا أنه عُرفَ بكرمه وحكمته . أمضى آخرَ حياته في أعمال الخيرِ ، حيثُ بنى مدرسةً وجامعًا في ناحية بشكطاش في اسطنبول ، وافته المنية في الرابع من يوليو سنة ١٥٤٦ ودفنَ في ناحية بشكطاش وكُتبَ على شاهدةِ القبر : ماتَ رئيسُ البحر . للاستزادة راجع :

A. Galotta, "Khayr Al-Din Pasha", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 4 (Leiden: Brill, 1978), pp. 1155-1158.

(٢) لم أهتدِ إلى معرفةِ فائق بك المذكور .

(٣) والمقصود هو الأشرف قنصوه الغوري ، وهو السلطان المملوكي قبل الأخير لمصر ، وُلِدَ حوالي سنة ١٤٤١م ، وكان مملوكًا من أصول شركسية للسلطان الأشرف قايتباي ، تلقى قنصوه الغوري تدريبه في

وطومان بك[1] .

المدرسة العسكرية التي تُعرف باسم الطبقة ، ولا يعرفُ عن سيرة حياته المبكرة سوى القليل . عُينَ كاشفًا على صعيدِ مصر سنة ١٤٨١م ، ثم أصبح أمير عشرة سنةَ ١٤٨٤م ، وشارك في العمليات التي شنها المماليك ضد العثمانيين على الحدود السورية مع قيليقية (Cilicia) ، حيثُ كان آنذاك نائبًا على طرطوس ، وفي عام ١٤٨٩م عُينَ بمنصب حاجب الحجاب لحلب ، حيثُ تمكّنَ من إخمادِ ثورةٍ خطيرة لأهالي المدينة سنة ١٤٩١م ، وبعدَ ذلك أصبحَ حاكمًا لملطيّة (Malatya) ، ثم ترقّى ليصبحَ في مرتبةِ رأسِ نوبات النواب ، وفي سنة ١٥٠١م ترقّى إلى مرتبةِ دوادار للسلطان العادل طومان باي ، الذي كان قد أعلنَ نفسه سلطانًا في دمشق ، غيرَ أنه وفي أبريل من العامِ نفسه اندلعت ثورةٌ عسكريّة في القاهرة ضدَّ العادل واختارَ مجلسٌ عسكريٌ من ثمانية أمراء الغوري ليصبحَ سلطانًا ، وكانَ عمره آنذاك نحو ستين سنة ، غيرَ أنه كان لا يزال ثابتًا شديدًا ، فرفضَ العرشَ أولَ الأمر ولكن الأمراء ألحوا عليه بقبوله بعد أن أقسموا له على الإخلاص في خدمته ، فقبله أخيرًا . بقي الغوري على العرش نحو خمسة عشر عامًا ، وشهدَ عهده صراعًا مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، حيثُ لم يتوانَ العثمانيون عن تقديم الدعم للمماليك والتحالف معهم لصد العدوان ، وخلال الصراع العثماني مع الدولة الصفوية اتخذَ الغوري موقفًا محايدًا وظلَّ مراقبًا للأحداث ، ثمّ تطورت الأمور ولم يبقَ لدى الغوري سوى ملاقاة العثمانيين لصدّ خطرهم على الأراضي المملوكية ، فسار إلى مرج دابق سنة ١٥١٦م حيثُ هُزِمَ نتيجةَ تفرق جيشه فضلًا عن خيانةِ قوّاده له وبخاصة والي حلب خاير بك . تُوفّيَ قنصوه الغوري في معركةِ مرج دابق شمال حلب في الرابع والعشرين من أغسطس سنة ١٥١٦م إثرَ إصابته بالفالج وسقوطه عن فرسه ، وتذكرُ بعضُ المصادر أنه سقط عن فرسه ومات ، بينما تشيرُ مصادرُ أخرى إلى أنه مات منتحرًا بسم تجرّعه عندَ علمه بنتيجةِ المعركة . للاستزادة راجع :

P.M. Holt, "Kansawh Al-Ghawri", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 4 (Leiden: Brill, 1978), pp. 552-553.

وانظر : محمد سهيل طقوش ، **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م** ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٩٧م ، ص : ٤٩٧-٥٠١ ، وانظر : وليم موير : **تاريخ دولة المماليك في مصر** ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص : ١٨١-١٩١ .

(١) وهو الأشرف طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر ، وُلِدَ حوالي عام ١٤٧٤م ، أصبحَ خلالَ فترةِ حكم عمّه السلطان قنصوه الغوري آنفِ الذكر «دوادار كبير» وذلك سنة ١٥٠٧م ، وكان في واقع =



رسم للسلطان سليمان القانوني من مجموعة باولو جوفو صاحب الدار المذكورة في النّص

Resource: Giovio, Paolo (1575), Pauli Iouii Nouocomensis Episcopi Nucerini Elogia Virorum Bellica Virtute Illustrium: Septem Libris Iam Olim Ab Authore Comprehensa, Petri Pernae Typographi Basil, Opera ac Studio, p. 372.

= الأمر الوزيرَ الأول للسلطان ومتقلّدًا لمناصبَ هامّة في الدولة : أُسْتَدار العلية وكاشف الكشاف ، كما أنه تمكّن من فرضِ هيبةِ الدولة بالقوّة فترة الاضطرابات التي شهدها صعيد مصر . وفي شهر مايو من عامِ ١٩١٦م أصبحَ نائب الغيبة إلى حين عودةِ السلطان الغوري الذي سارَ إلى حلب لملاقاةِ العثمانيين تحتَ قيادةِ السلطان سليم الأول ، فساسَ الناسَ في غيبته أحسنَ سياسة ، ولما ماتَ السلطانُ الغوري وتسلطنَ مقامه أبطلَ من المظالم أشياء كثيرة مما كان يُعمل في أيام الغوري ، وذكرَ المؤرخ المعاصر ابن إياس أن طومان باي كان شابًا حسنَ الشكل ، كريمَ الأخلاق ، وكان شجاعًا بطلًا تصدّى لقتال ابن عثمان ، ووقعَت منه في الحرب أمور لم تقع من الأبطال العنانرة ، وكانَ ملكًا جليلًا قليلَ الأذى كثير الخير ، ودامت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر ونصف الشهر ، وآخر الأمر أنه شُنِقَ في الرابع عشر من أبريل عام ١٥١٧م على باب زويلة في القاهرة ، وصرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف ، وأقامَ ثلاثة أيام وهو معلق حتّى عطنت رائحته . انظر :

P.M Holt, "Tuman Bay", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 10 (Leiden: Brill, 2000), pp. 621-622.

وانظر : ابن إياس ، **المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور** ، مطابع الشعب ، ١٩٦٠م ، ص : ١٠٩٣-١٠٩٤ .

بحيرة ماجّوري والجزر الواقعة عليها

وعَلمنا أنه توجدُ على مسافة خمس أو ست ساعاتٍ من المدينة المذكورة بحيرةٌ جميلةٌ يُقال لها لاق دو ماجورو[١] فتوجَّهنا صوبَها ، والحقيقةُ أنَّ المكانَ جميلٌ ، وهذه البحيرةُ هي الحدُّ الفاصلُ بينَ دولةِ النمسا ودولةِ سردينيا[٢] ، وتوجد في هذه البحيرة أربعُ جزرٍ واسمها -إذا ما تُرجمَ إلى التركيَّة- هو كوزل اطه[٣] ، كما يوجدُ في هذا الموضع مصيفٌ ساحليٌّ كبيرٌ ومشيدٌ على الطِّراز القديم[٤] ، وبستانٌ واسعٌ يشتملُ على عشر تَلالٍ وفيه هياكل عجيبةٌ وأصنام عتيقةٌ متنوعةٌ .

---

(١) وهي بحيرة ماجَوري (Lago Maggiore) وهي ثاني أكبر بحيرة في إيطاليا بعدَ بحيرة غاردا (Lago di Garda: ، وتبلغ مساحتها ٢١٢,١٦ كيلومترًا مربعًا . للاستزادة راجع

Manfredo Vanni et al., “Maggiore, Lago”, Enciclopedia Italiana, 1934, Vol. 21, pp.889-892.

(٢) جاء الإدريسي على وصف جزيرة سردينيا فذكر أنها جزيرةٌ «كبيرة القطر كثيرة الجبال قليلة المياه ، وطولها مائتان وثمانون ميلًا وعرضها من المغرب إلى المشرق مائة وثمانون ميلًا ، وطولها مار من الجنوب إلى الشمال مع قليل تشريق ، وفيها ثلاثة بلاد منها : القيطنة وهي مما يلي جنوبها ، وهي مدينة عامرة ممدنة ومنها مدينة قالمرة وهي رأس المجاز إلى جزيرة قرشقة ، ومدينتها الثالثة تسمى قشيلية ، وأهل جزيرة سردانية في الأصل روم أفارقة متبربرون ومتوحشون من أجناس الروم ، وهم أهل نجدة وحزم لا يفارقون السلاح وفي جزيرة سردانية معادن الفضة الجيدة . . .» . انظر : الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن محمد الحسني ، نزهة **المشتاق في اختراق الآفاق** ، منشورات المعهد الجامعي الشرقي بنابولي ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، طبعة نابولي -روما ، ١٩٧٥م ، ج ٥ ، ص : ٥٨٤ .

(٣) كوزل اطه (Güzel Ada) تعني الجزيرة الجميلة ، والحقيقة أن الجزرَ المذكورة تُدعى جزر البرومي (Isole Borromee) ، وعددها أربع ، واحدةٌ منها تُدعى الجزيرة الجميلة (Isola bella: انظر .

George Kish, “Borromean Islands”, *The Encyclopedia Americana*, 1989, 4/290.

(٤) لعلَّ المصيف المذكور هو الذي بناه الكونت كارلو بورّوميو (Conte Carlo Borromeo) ، حيثُ بدأ أعمالَ البناء سنة ١٦٣٠م وأتمّ أبناؤه العملَ أواخر القرن السابع عشر ، ويشغلُ القصرُ اليومَ متحفًا للرسومات . انظر : Ibid. p. 290.

ومن حيثُ إنَّ الطقسَ حارٌ في هذا الموضع فإنه تنبتُ فيه بعضُ الأشجارِ العجيبةِ والأزهار العديدة ، كما تتوافرُ بكثرةٍ أشجارُ الليمون والبرتقال الكبيرةِ . غير أنَّه -وحسبَ ما رُوِيَ- لم يأتِ إلى هذه النَّواحي إلى الآن أيُّ أحدٍ من بلادِ المسلمين ، إلاّ أنه وبسببِ علوِّ مرتبةِ الأمةِ الإسلاميةِ ، توجدُ في إحدى غرف القصرِ المذكور كتاباتٌ بالخطِّ العربيّ ، حتّى إنَّ المرءَ إذا دقّقَ النظرَ في ما هو مكتوبٌ فوقَ إحدى الأبواب فإنه يقرأُ العبارةَ الجليلةَ : «لا غالبَ إلاَّ الله ولا إلهَ إلاَّ الله الملكُ الحقّ المبين ، محمدٌ رسولُ اللهِ صادقُ الوعدِ المبين» وعندَ سُؤالنا أخبرونا أنَّ هذه الغرفةَ إنما أُنشئتْ تقليدًا لقصرِ أبي حمرا[1] زمن ملوكِ المسلمين في الأندلس ، ومن هنا رأينا بعضَ المدن الواقعةِ على أطرافِ دولةِ سردينيا .

وقد كانت مدينةُ ميلان شمالَ إيطاليا وما حولها من توابع دولةِ النمسا تحتَ حكم الفرنسيين لوقتٍ طويلٍ زمنَ نابليون المشهور ، وكان أكثرُ أهاليها ميّالينَ إلى التَّحررِ من حكمهم ، ولذا فإنَّ دولةَ النمسا لا تثقُ كاملَ الثقةِ بأهالي المدينةِ المذكورةِ ،

---

(١) يقصدُ قصر الحمراء في غرناطة ، الذي بدأ تشييده في عهدِ محمد الأول الغالب من بني نصر ، وتنافسَ أعقابه من بعده ، في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، في بناء قاعدة ملكهم . وقد ظهر اسمُ الحمراء أواخر القرن التاسع الميلادي ، وكان يُطلق على قلعة صغيرة لجأ إليها العربُ هربًا من الملاحقة خلال الثورات التي وقعت زمن الأمير الأموي عبدالله ، ويبدو أن هذه القلعة كانت مبنيةً على أقصى الجانب الغربي من هضبة السبيكة ، وفي أيام بني نصر شملت الحمرا جميع أجزاء الهضبة ، ولما دخل محمد ابن الأحمر غرناطة سنةَ ١٢٣٨م نزلَ في قصبة الزيريين ثمَّ ما لبث أن أمر ببناء قصر الحمراء ، ويُعد قصر الحمراء القصر الوحيد لمسلمي العصور الوسطى الذي حافظ على بقائه بشكل كامل إلى اليوم ، ويعود الفضل في ذلك إلى الحكام المسيحيين الذين أحبوا الحمراء وتنبُّهوا إلى هشاشة الأبنية فعمدوا إلى ترميمها وتقويتها . للاستزادة انظر : كارل بروكلمان ، **تاريخ الشعوب الإسلامية** ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ص : ٣٤١-٣٤٣ ، وانظر :

H. Terrasse, "Gharnata" *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 2 (Leiden: Brill, 1964), pp. 1016-1020.

حتّى إنه توجدُ قوّةٌ عسكريّةٌ على جميع أطرافِ المدينةِ ، وهي في ظاهرِ الأمر لأجل مراسمِ التتويجِ وما يلزمُ ذلك من أبّهةٍ ، وقد أرسلوا عساكرَ نظاميةً جميعها من أمم أجنبيَّةٍ ، أي من الجريين والألمانِ ، [٢١] ومن حيثُ إنَّ الثكناتِ الموجودة داخلَ المدينةِ لم تكن لتتسعَ فقد نَصبوا لبقيّةِ العساكرِ الخيمَ خارجَ المدينةِ .

موكب الإمبراطور فيرديناند الأول عندَ دخولِ ميلانو

وبعد مدينةِ قوما ، توجَّهَ الإمبراطورُ المشارُ إليه إلى قصرِ مدينةِ مونسا آنفةِ الذكر ، حيثُ أقامَ فيه واستراحَ بضعةَ أيام . وفي الثاني عشر من جمادى الآخرة يوم السّبت[١] كانَ عازمًا على دخولِ مدينةِ ميلان ، ولهذه الغاية فقد كانت المواكبُ في ذلك اليوم مرتبةً على هذا النَّحو :

في المقدمةِ موكبُ موسيقى الخيالة ، ويليهم موكبٌ من الخيالةِ الجريين ثم المشاة من العساكر النظاميّةِ مع الموسيقى ونحو اثني عشر خيلًا مُزينةً ، وبعدها أكثرُ من مئةِ عربةٍ يجرُّ كلًا منها زوجان من الخيلِ وفيها مخاتيرُ أقضيةِ ميلان ، ويليها عرباتٌ تجرُّها ستّةُ خيولٍ تقلُّ ولاةَ البندقيةِ وميلان ، وبعدها نحو ثمانين عربةً وفيها أكابرُ ميلان وأعيانُها ، ثم بعدَ ذلك خيولُ الخدم الخاص بالإمبراطور ، ثم عربتان مُزيَّنتان يجرُّ كلًا منهما ستة خيول لموكبِ الإمبراطور المشار إليه ، وبعدها عربة بستة خيول تقلُّ وكيلَ الملك في ميلان ، ثم عربة ذات أبهة عظيمة ومزينة للغاية تجرُّها ستةُ خيولٍ شهباء وفيها الإمبراطورُ والإمبراطورةُ ، وبعد ذلك عربات يجرُّ كلا منها ستةُ خيولٍ وفيها خَدَمُ الإمبراطورةِ ، والعساكر الخاصة بالإمبراطور ، وهي مزيّنةٌ ومملوءةٌ ، ثم خدمُ القصر ، وبعد ذلك مرَّت الخيالةُ وموكبُ العساكرِ النظاميةِ وفرقةُ الموسيقى تمامًا مثل أوَّلِ مقدّمةِ الموكب .

وامتدَّ الموكبُ المذكور مقدارَ ساعةٍ من الزّمان ، وبعده دخلَ الإمبراطورُ المشارُ إليه كنيسةَ طومه آنفة الذكر ، وبعد ذلك وصلَ إلى القصرِ ، وفي تلك الليلة كانت جميعُ أنحاء البلدة مزيّنةً وجرتِ الاحتفالاتُ .

---

(١) وهو الموافق للثاني من سبتمبر عام ١٨٣٨م .

مأدبةُ غداء في حضرة الإمبراطور

وفي اليوم التّالي تمَّ ترتيبُ ضيافةٍ في القصرِ المذكور، وبحضور الإمبراطور والإمبراطورة وأفرادِ الأسرةِ الحاكمةِ، حيثُ دُعِيَ دوقات طوسقانه(١) وسائر حكومات إيطاليا، وكذلك سفراء الدول الكبرى وبعض ذوي الشّأنِ من أركانِ الدولةِ.

وبمقتضى المنصبِ الذي أشغلُه فقد دُعيتُ أنا أيضًا، وحينَ ذهبنا كانت قد أُعدَّتْ مائدةُ طعامٍ كبيرةٍ، وبعد الانتهاءِ من تناول الطعام سألَ الإمبراطورُ عن صحّةِ كلِّ واحدٍ من الحاضرين وحاله، وبعد ذلك ركبنا العربات وزرنا متنزَّهًا في مدينةٍ [22]يُقالُ لها قورسا(٢)، وفي المساء ذهبنا إلى صالةِ مسرحٍ يقال له اسقاله(٣) وهناك شاهدنا عروضَ رقصٍ تُدعى باله(٤).

---

(١) يقع إقليم توسكانا (Toscana) وسطَ إيطاليا، وعاصمتهُ مدينةُ فلورانس (Firenze).

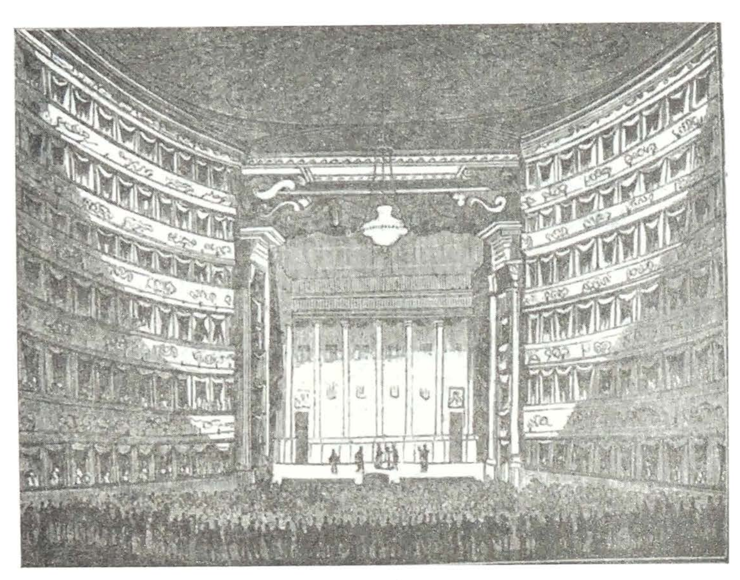
(٢) كذا وردت، ولا بدَّ أنه يقصدُ مدينة كورسيكو (Corsico)، وهي مدينة صغيرة على مقربةٍ من ميلانو.

(٣) والمسرح المذكور هو مسرح ألاّ سكالا (Teatro alla Scala) في مدينةِ ميلانو شمال إيطاليا، ويعدُّ واحدًا من أعظمِ دور الأوبرا في العالم، وتُعرضُ فيه الأوبرا الإيطالية وغير الإيطالية. بُني المسرح بأمر من الإمبراطورة ماريا تيريزا (Maria Theresa)، وتولّى بناءه المعماري جوزيبي بييرماريني (Giuseppe Piermarini)، وافتتحَ في الثالث من أغسطس سنة ١٧٧٨م. أُعيدَ إعماره بشكل كبير سنة ١٨٦٧م، وشهدَ المسرح ازدهارًا كبيرًا خلال العشرينيات من القرن الماضي تحتَ إدارة آرتورو توسكانيني (Arturo Toscanini)، تعرّض مسرح ألاّ سكالا للتدمير سنةَ ١٩٤٣م إبان الحرب العالمية الثانية، بيدَ أنه تم ترميمه بعناية وافتتحَ مجددًا سنةَ ١٩٤٦م. انظر:

"La Scala", *The Encyclopedia Americana*, 1982, 24/329.

(٤) يريدُ الباليه (Ballet)، وهو أحد فنون الرقص ذي التقاليد والتقنيات والأساليبِ الفريدة التي تميزه عن سائر أشكالِ الرقص الأخرى، وكلمة باليه مشتقة من الكلمة الإيطالية بالأري (Ballare) التي تعني «يرقص»، وتعودُ نشأةُ هذا الفنّ إلى القرن الخامس عشر إبّان عصر النهضة في إيطاليا، ومنها انتقلَ إلى البلاطات الفرنسية. للاستزادة راجع:

"Ballet" *The Encyclopedia Americana*, 1983, 3/106-110.



رسم لمسرح ألاَّ سكالا من الداخل

Resource: Cesare Cantù (1858),

Grande Illustrazione del Lombardo-Veneto, Milano,

Corona e Caimi Editori, Vol. 1, p. 213.

وفي يوم الاثنين حضرَ الجميعُ إلى القصرِ واجتمعوا في الدّيوان ، حيثُ جلسَ الإمبراطورُ على كرسي الحكومةِ ، وكذلك جلستِ الإمبراطورةُ وسائرُ أفرادِ الأسرةِ الحاكمةِ في أمكنةٍ مخصصةٍ لهم على مقاعدَ مزينة ، كما خُصِّصتْ مقاعدُ لجميع سفراءِ الدولِ الصديقة . وكان أركانُ الدولةِ قائمين على يمينِ الإمبراطورِ وعن شماله . ثمَّ طُلِبَ من أعيان بلادِ إيطاليا الواقعةِ تحتَ حكم دولة النمسا ووكلائها إعلانُ الصّدقِ والولاءِ لحضرةِ الإمبراطور ، وذلك بأنْ يَقرؤوا أوراقًا ثمَّ يقوموا بأداء اليمين ، فأجابوا حسبَ الأصول وأظهروا الولاء والطّاعةَ لدولةِ النمسا . وفي المقابل فإنَّ الإمبراطورَ قرأ عليهم وبيَّنَ لهم الميثاقَ الذي يتعهّدُ بموجبه بحمايةِ كافَّةِ حقوقهم

وصيانتها ، وبعدَ ذلك قامَ الجميعُ -وفقَ عاداتهم والأصول المُتَّبَعَةِ عندهم- بالتصفيقِ إظهارًا للاستحسانِ وتقديمًا للشُكرِ . وبعدَ ذلك توجّهَ الإمبراطورُ من جديد في موكبٍ إلى الكنيسةِ ، وفي المساء نظَّمَ أكابرُ البلدةِ حفلًا راقصًا في صالةٍ يقال لها قربنو .

وفي مساءِ اليوم التالي نظَّمَ الإمبراطورُ في قصره حفلًا راقصًا كبيرًا قوامه أربعة آلاف شخص من الذكور والإناث ، وقد عَمِدَ الإمبراطورُ والإمبراطورةُ وسائرُ أفرادِ الأسرةِ الحاكمةِ إلى إجراءِ مراسم السلام على سائرِ سُفراءِ الدولِ الصديقةِ والاستفسارِ عن أحوالهم ، وبعد ذلك عُزفتْ الموسيقى ورقصوا . وفي اليوم التالي زرنا المصانعَ والمدارسَ والمشافي والمكتبات والكنائس وسائرَ الأماكنِ الجميلةِ في تلك المدينة .

مراسم تتويج الإمبراطور فيرديناند الأول في ميلانو

وفي يوم الخميس السّابع عشر من الشهر المذكور[1] وهو اليومُ الذي قرَّروا فيه إجراءَ مراسم التتويج ، فإن سُفراءَ الدّولِ الصديقةِ تجمَّعوا بدايةً في مكانٍ مخصصٍ لهم ، وبعدَ ذلك وصلَ الجميعُ إلى كنيسةِ طومه آنفةِ الذكر في موكبٍ خاصٍ ، فجلست الإمبراطورةُ أولًا وسائرُ نساءِ الأسرةِ الحاكمةِ ، ثم وليُّ العهدِ ، وجلسَ جميعُ هؤلاء على مقاعدَ مرتفعةٍ عن يمينِ الإمبراطورِ وعن شماله ، وبعدَ ذلك [٢٣] ، فمن حيثُ إنَّ قصرَ الإمبراطورِ كان قريبًا ، فإنّ الإمبراطورَ نفسَه جاءَ ماشيًا في موكبٍ من أركانِ دولته ، وذلك تحتَ مظلّة على شكلِ شمسيّة ، مرتديًا ثيابًا رسميّةً ؛ فعَلا رأسه تاجُ إمبراطوريةِ النمسا المرصَّع[2] ، ومرتديا وشاحًا وفروَ القاقم[3] الدمشقيّ طويل الذيل ومغطّى بالمخمل وهو جميلٌ للغاية .

---

(١) وهو الموافق للسادس من سبتمبر عام ١٨٣٨م .

(٢) والتاج المذكور هو التاج الحديدي (Corona Ferrea) ، وهو محفوظٌ اليوم في كاتدرائية مدينة مونسا (Monza) .

(٣) القاقم (Mustela erminea) هو حيوان من فصيلة العرسيات ، ويستعملُ فروه في صنع الملابس الفاخرة .

واتّجهَ الإمبراطورُ إلى الكنيسةِ المذكورةِ حيثُ جلسَ على عرش إمبراطوريةِ النمسا الموضوع في الصدر ، وبعدَ ذلك قامَ الأسقفُ بإجراء مراسم رفع التاج المذكور عن رأسِ الإمبراطور ووضعه في مكانٍ معتبرٍ ، وبعد ذلك أحضرَ الأسقفُ بيدِه صليبًا حديديًا مرصّعًا يزعمونَ أنه من عملِ حضرةِ المسيح حاش له ، ووضعَ على رأسِ الإمبراطور تاجَ مملكةِ ميلان ، وحملَ الإمبراطورُ في يدٍ عصا وفي الأخرى مثل كرةِ الأرض وذلك كنايةً عن السلطةِ التي يتمتَّعُ بها ، كما وُضعَ عرشٌ آخر مخصوصٌ لأجلِ مملكةِ إيطاليا حيثُ جلسَ عليه الإمبراطورُ ، وفي الحال نادى منادٍ بصوتٍ عالٍ ما يمكنُ ترجمته إلى التركيّةِ على هذا النحو : «مَلِكُنا الإمبراطورُ فردناند» وعندئذٍ قامَ كلٌّ من في الكنسيةِ ذكورًا وإناثًا بالتصفيقِ وأدُّوا مراسمَ القبولِ والبيعةِ ، وبعدَ ذلكَ تمَّ الاحتفالُ بإطلاقِ المدافعِ والرّصاصِ مقدارَ ساعة أو ساعتين .

ما تَبِعَ التتويج من احتفالات وفعاليَات

وبعد ذلك اتجهَ الإمبراطور إلى القصر في موكبٍ تحتَ المظلّة على النحو المشروح آنفًا ، ولما وصلَ كان عوامُ النَّاس يتزاحمون حولَه ، وانحنى لهم الإمبراطورُ ، وجلسَ بعد ذلك في بهوِ القصرِ المذكور مع أسرته ، وأركانُ دولته قائمون على جانبه ، وخُصِّصتْ أماكنُ لسائرِ المدعوّين والموجودين لأجل الرَّاحةِ ، وبالاستماعِ للموسيقى وسائر الأغاني مرةً أخرى فإنّ مراسمَ التتويج المذكورة تكونُ قد انتهتْ .

وفي المساء فإنَّ الباشا وكيل أمور الخارجية وناظرها للإمبراطورية المشار إليها الأمير ميترينخ[1] قد رتّبَ في قصره مائدة ضيافة من طرفِ الإمبراطورية لكافّةِ سفراء

---

(١) وُلِدَ الأمير ميترينخ (Metternich) في كوبلنس (Coblenz) في ولاية راينلند الألمانية (Rhineland) وذلك في الخامس عشر من مايو سنةَ ١٧٧٣م ، والتحقَ بجامعة ستراسبورغ عام ١٧٨٨م ، إلا أن اندلاع الثورة الفرنسية اضطره للانقطاع عن الدراسة ومغادرة فرنسا عامَ ١٧٩٠م . وفي أواخر عام ١٧٩٥م تزوجَ ميترينخ من الكونته إيليونورا كونيتز (Eleonore Kaunitz) وريثة المستشار النمساوي السابق فينزل انطون فون كونيتز (Wenzel Anton von Kaunitz) وحفيدته مما فتحَ الباب أمامه للوصولِ إلى مراكز صنعِ القرار في البلاد . تقلّد ميترينخ منصبي وزير الخارجية =

الدول الصديقة والمسؤولين الذينَ قَدِموا من بعضِ الدولِ بُغيةَ حضورِ مراسمِ التتويج .
وفي تلك الليلة كانت المدينةُ مزيَّنة بالشموعِ والقناديل .

وفي اليوم التالي زرنا بعضَ الأماكنِ الجميلة [٢٤] ، ورأينا صنائعَ عجيبة وتصاويرَ وأصنام غريبة وأنواعَ الأقمشةِ والجوقة(١) والأسلحةَ وسائرَ الأمورِ المصنَّعة .

وبعدَ الانتهاءِ من مراسمِ التتويج دُعِيَ جميع السّفراءِ وسائرِ الوكلاءِ إلى حفلِ موسيقي مسائيّ في قصرِ الإمبراطور لأجل تقديمِ التهاني . كما نظَّمَ أهالي البلدة في مساءِ اليومِ التالي حفلًا راقصًا في مسرح اسقله ، وفي النّهار أُعدَّتْ مأدبةُ غداءٍ برسمِ الضّيافة من طرفِ رئيسِ الأركانِ العامةِ للجيش وكانَ خارجَ المدينةِ .

افتتاح قوس النصر في ميلانو

وكان نابليون المشهور حينَ اعتدى على مملكةِ إيطاليا قد وضعَ الأساسَ للحدّ وأسماه قوسَ الغَلَبَة ، وبعد أن تمّ الصلحُ بين جميعِ البلادِ الأوروبيّة سُمّي بقوسِ

= ومستشار الإمبراطورية النمساوية ، وقاد الإمبراطورية للنصر ضدّ نابليون ، وقد لمعَ اسمه في قيادته لمؤتمر فيينا (أيلول ١٨١٤م-حزيران ١٨١٥م) ، حيثُ حاولَ إعادة التوازن بين القوى الأوروبية . كانَ له تأثير عظيم خلال وجوده في السلطة حيثُ يُطلقُ على تلك الفترة اسمَ «عهد ميترينخ» ، إلا أنه مع ذلك يعدُّ مثار خلاف ، إذ هناك من يعتبره رجل دولة حكيم ومتنور ، وهناك من يرى أنه انتهازي ضيق الأفق استخفَ بظروفِ تلك الأوقات بمناهضته للقومية والحريّة . نُفي إلى إنجلترا بعد اندلاع الاضطرابات في آذار سنة ١٨٤٨م حيثُ أمضى فيها ثلاث سنوات ليعودَ بعد ذلك إلى فيينا دونَ أن يتولّى أي منصب سياسي . وافتهُ المنية في الحادي عشر حزيران سنة ١٨٥٩م . للاستزادة راجع :

K.O.v.A, "Metternich", *The New Encyclopedia Britannica*, 1981, 12/62-65.

(١) كذا وردت ، والجوقة بالتركيّة القديمة ، أو الجوخ أو الجوخة معربةً هو القماش الثقيل كان يُجلبُ من بلادِ الفرنج لعملِ المقاعدِ والستائر وثياب السروج ، ويُلبسُ الجوخ في أوقاتِ المطر . للاستزادة انظر :

Dozy, Reinhart (1845), *Dictionnaire Détaillé des Noms des Vêtements chez les Arabes*, Amsterdam, Jean Müllerr, pp. 127-131.

الصُّلح[1] ، وقد أُنشِئ زمنَ الإمبراطور السَّابق فرانجسقو[2] ، وأمّا الآن -وقد تمَّ إنجازه- فقد جرى حفلُ افتتاح بوَّابته المشيّدة من الحجر ، وقامت العساكرُ من الخيالة والمُشاة بإجراء العروضِ بإطلاق الرصاص ، وتمّ ترتيبُ حفل رقصٍ مخصوص من طرفِ والي المدينة ، وفي مساءِ اليومِ التالي كذلك تم تنظيمُ حفل رقصٍ من طرفِ التجار .

---

(١) ويسمى قوس السلام (Arco della pace) .

(٢) وهو فرانسيس الثاني آخر أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأول أباطرة النمسا تحتَ اسم فرانسيس الأول ، ولِدَ في مدينة فلورنس في الثاني عشر من فبراير سنة ١٧٦٨م ، وأُرسِلَ إلى البلاط الملكي في فيينا سنةَ ١٧٨٤م حيث تلقى تعليمه تحتَ إشراف عمه جوزيف الثاني ، وحينما تُوفي عمه في فبراير من عام ١٧٩٠م تولى فرانسيس الثاني إدارة البلاد إلى حين وصول أبيه ليوبولد (Leopold of Tuscany) الذي كان آنذاك الدوق الأكبر لفلورنس ، ثمّ تولّى فرانسيس الحكمَ بعدَ وفاة أبيه في الأول من مارس سنة ١٧٩٢م ، وانتخب إمبراطورا مقدسا في السابع من يوليو من العام نفسه . خاضَ الإمبراطور حروبًا ضد نابليون ، وعانت النمسا من خسائر فادحة في الأراضي والأموال ، وفي الحادي عشر من أغسطس سنة ١٨٠٤م أعلن فرانسيس الثاني نفسه إمبراطورا للنمسا تحتَ اسم فرانسيس الأول ، بينما ألغى الإمبراطورية الرومانية المقدسة رسميًا في السادس من أغسطس سنة ١٨٠٦م . اهتمَّ فرانسيس كثيرًا بالسياسة الداخلية لبلاده واتخذ شعار «العدل أساس الممالك» ، وحظي بشعبية كبيرة وكان يُعرفُ بالإمبراطور فرانسيس الطيب . وافته المنية في فيينا في الثاني من مارس سنة ١٨٣٥م وخلفه ابنه فيرديناند الأول . انظر :

E. C. Helmerich, "Francis II", *The Encyclopedia Americana*, 1983, 11/848-849.



رسم لقوس السلام في ميلانو

Resource: Quindici Giorni in Milano Delle LL. MM. II. RR: Strenna Per L'Anno 1839, Milano: Presso Carlo Canadelli, nella Galleria de Cristoforis n. 12-13. pp.166-167

كما أُقيمت مأدبةٌ في قصرِ الإمبراطور مرةً أخرى للسفراء وللجميع ، وفي المساء نُظِّمَ حفلٌ راقص في مكانِ إقامةِ الأمير ميترينخ آنفِ الذكر .

وفي اليوم التالي تم تنظيم الألعابِ البهلوانيّةِ وسباقِ الخيلِ ، وفي المساء جرت الاحتفالاتُ بإطلاقِ الألعابِ النّاريّةِ . وبمناسبةِ الجلوسِ على العرش فقد تم إعلانُ قرارِ العفو العام وتطبيقه عن جميع الذين أُدينوا زمنَ نابليون بتهمةِ الفسادِ في المدينةِ ، وكذلك المطرودين والمحبوسين منَ الوجهاء والأهالي[١] .

---

(١) ويشملُ العفو العام الإفراجَ عن جميع المدانين بجرائم سياسية ، وإلغاء جميع القضايا المعلَّقة في المحاكم ضد الأفراد المورَّطين في مكائد سياسية ضدّ الدولة ورفع الإقامة الجبرية المفروضةِ عليهم ، وإسقاط هذه القضايا عن الأفراد الذينَ غادروا البلادَ لاجئين سياسيا ، وقد نُشرَ الإعلان في الصحف الرسمية موقّعا بتاريخ السادس من سبتمبر عام ١٨٣٨م أي في اليوم الذي دخلَ فيه فيرديناند الأول مدينةَ ميلانو . انظر :

Gazzetta della Provinca di Como, No. 23, 8. Settembre 1838

وأُقيمتْ في هذه الأيام الرّسمية موائدُ الضيافةِ من طرفِ سفراء الدُّول الكبيرة ، ودُعِيَ إليها وكلاءُ دولة النمسا وسفراء الدول الصديقة ، ومما يتصلُ بمراسم التتويج أنهم ضربوا الميداليات الفضية والذهبية ذات الصّورة وفقَ النظام المُعتاد[1] ، وقد أُرسِلَ عددٌ من هذه الميداليات من جانبِ الإمبراطوريّة إلى السَّفارة السَّنيّة[2] .

وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الثانية[3] أُجريتْ مراسمُ الوداع ، وفي المساءِ سِرنا إلى مدينةِ قورسا وكانت مُزينةً بالقناديل ، إلاَّ أنه لم يكن من اللائقِ إجراءُ الاحتفالات لأنه منذُ ما يقاربُ الأسبوع والمطرُ يهطلُ بشدّةٍ ليلَ نهارٍ .

مغادرة ميلانو

ومن حيثُ إنَّ جنابَ الإمبراطور كانَ عازمًا يومَ السبت القادم على التحرك من ميلان [٢٥] من غير مراسم والسفر إلى البندقيّة ، فقد انتقلنا في الثامن والعشرين من الشهر المذكور[4] من ميلان قاصدين زيارةَ بعضِ الأماكن في إيطاليا وهي من

= وانظر :

Berger (1838), *Denkbuch der Kro?nung Seiner Majesta't Ferdinand I. am 6. September 1838 zu Mailand*, Wien, Sollinger, pp. 48-49.

(١) للاستزادة حول العملة التي ضُربت في ميلانو في عهدِ فيرديناند الأول راجع :

Arthur L. Friedberg, Ira S. Friedberg (2009), *Gold Coins of the World: From Ancient Times to the Present : An Illustrated Standard Catalogue with Valuations*, New Jersey, The Coin and Currency Institute, Inc., p. 544

(٢) أي سفارة الدولة العثمانيّة .

(٣) وهو الموافق للرابع عشر من سبتمبر عام ١٨٣٨م .

(٤) وهو الموافق للسابع عشر من سبتمبر سنة ١٨٣٨م .

خيرِ البلاد في القارَّةِ الأوروبيةِ ، فسافرنا إلى مدينةٍ يقال لها لودي[١] ، ورأينا جسرها الكبير حيثُ وقعتْ معركةٌ حاميةُ الوطيس أيام نابليون الشهير[٢] ، ومن هناك وصلنا إلى مدينةِ بياسنجة[٣] ، وهي الآن في عهدةِ وإدارةِ أخت إمبراطور النمسا وزوجةِ نابليون ماريه لويزه[٤] ، والمدينةُ المذكورةُ عظيمةٌ وكبيرةٌ ويجري في وسطها نهرٌ ، وهي

---

(١) تقعُ مدينةُ لودي (Lodi) على ضفَّةِ نهر أدَّا (Adda) في مقاطعةِ ميلانو ، وذلك على بعدِ ٢٧ كيلومترًا إلى الجنوب الشرقي منها ، تعرضت المدنية خلال صراعها مع الميلانيين للتدمير ، وتتميّزُ المدنيةُ بازدهار صناعةِ المنسوجات وتربية الأبقار وانتاج الألبان ومشتقاتها . للاستزادة راجع :

Carlo Calzecchi Onesti et al., "Lodi", *Enciclopedia Italiana*, 1934, Vol.21, pp. 378-379.

(٢) وتُعرَفُ هذه المعركة في الأدبيات الأوروبية باسم معركة لودي (Battaglia di Lodi) أو معركة جسر لودي (Battaglia del Ponte di Lodi) ، ووقعت في العاشر من مايو سنة ١٧٩٦م ، بينَ الفرنسيين بقيادةِ نابليون والنمساويين بقيادةِ جون بيتر بيوليو (Johann Peter de Beaulieu) ، وانتهت المعركة بهزيمة القوّات النمساوية . للاستزادة انظر المرجع السابق : ص : ٣٧٠ .

(٣) كذا وردت ، ويريدُ مدينةَ بياتشنسا (Piacenza) ، وهي إحدى المدن الواقعة في إقليم إميليا رومانيا (Emilia Romagna) على الضفة الجنوبية لنهر البو (Po) ، وتبعدُ بياتشنسا نحو ٦٤ كيلومترًا عن ميلان ، وقد بُنيت هذه المدينة من قبل الرومان في القرن الثاني قبل الميلاد . وبلغَ عدد سكان المدينة سنةَ ١٨٣٣م (أي قبل زمن الرحلة بخمسة أعوام) نحو ثلاثين ألف نسمة . للاستزادة راجع :

Mario Longhena et al., "Piacenza", *Enciclopedia Italiana*, 1935, Vol.27, pp. 92-97.

(٤) ماري لويز (Marie-Louise) هي الابنةُ الكبرى لإمبراطور النمسا فرانسيس الأول ، وُلِدَت في فيينا في الثاني عشر من ديسمبر عام ١٧٩١م . تزوَّجها نابليون ليكونَ له ولي عهدٍ منها وليصبحَ حليفًا للأُسَر الملكية العريقة في أوروبا ، حيثُ طلبَ يدها من أبيها ومن الأمير ميترنيخ وعمرها حينئذٍ ١٨ عامًا ، وذلك في أعقابِ معركة واغرام (Battle of Wagram) والاستيلاء على فيينا . وفي عام ١٨١٦م آلت لماري لويز كل من دوقية بارما (Parma) وبياتشنسا (Piacenza) وغواستالاّ (Guastalla) إلاّ أنها فقدت عرشها في بارما سنةَ ١٨٣١ نتيجةَ ثورة شعبية . تُوفيت في فيينا في السابع عشر من ديسمبر عام ١٨٤٧م . انظر :

"Maria Luisa" *The Encyclopedia Americana*, 1978, 18/282.

جميلةٌ جدًا وإن كان أكثر بُنيانها قديمٌ وعددُ سكانها قليلٌ .

ومن هناك وصلنا إلى بارمه[1] ، وهي أيضًا في عهدةِ زوجةِ نابليون المشار إليها ، والحقيقةُ أنَّ هذه المدينةَ كبيرةٌ ومعمورةٌ ، ورأينا فيها مكتبةً عظيمةً وكنائسَ كبيرة ومتحفًا للرسومات فخمًا . ومن هناك سافرنا إلى مدينةِ مودنا[2] ، وهي دوقيّةٌ مستقلةٌ إداريًا ، ورأينا أنها معمورةٌ ومتوسطةُ الحال . وبعدَ ذلك توجّهنا إلى مدينةِ بولونيا[3] وهي من البلادِ الواقعةِ تحت سلطة البابا ، وهي مدينةٌ عظيمةٌ معمورةٌ وقديمةٌ ، وجميعُ دكاكينها ذاتُ قناطر .

---

(١) تقعُ مدينةُ بارما (Parma) في إقليم إميليا رومانيا (Emilia Romagna) شمال إيطاليا ، ويعودُ تاريخها إلى زمن ازدهار العصر البرونزي ، ويبدو أنَّ المدينة تأسّست وسُمّيت بهذا الاسم من قبلِ الإتروسكيين (Etruscan) ، وقد بلغَ عدد سكان المدينة سنة ١٨٣٣م -أي قبل خمسة أعوام من زمنِ الرحلة- ثمانية وثلاثين ألفًا ومئتين وتسعًا وسبعين نسمة ، وكانت المدينة خلالَ زمن الرحلة تحتَ حكم زوجة نابليون ماري لويز دوقة بارما (Marie Louise) ، والتي كانت دوقة بارما من عام ١٨١٦م وإلى حين وفاتها عام ١٨٤٧م . أصبحت بارما ضمنَ مملكة إيطاليا الموحّدة وذلك في عام ١٨٦٠م . للاستزادة راجع :

Mario Longhena et al., "Parma", *Enciclopedia Italiana*, 1935, Vol.26, pp.382-388.

(٢) مودينا (Modena) هي إحدى المدن الواقعة في إقليم إميليا رومانيا (Emilia Romagna) شمال إيطاليا ، وتبعدُ عن مدينة بولونيا (Bologna) ٣٧ كيلومترًا ، وتقعُ على الحدّ الجنوبي لنهر البو (Po) ، على مقربة من سفوحِ جبال الأبينيني ، أصبحت المدينة جزءًا من مملكة إيطاليا الموحدة سنة ١٨٦٠م . للاستزادة راجع :

Mario Longhena et al., "Modena", *Enciclopedia Italiana*, 1934, Vol. 23, pp.513-520.

(٣) تقعُ مدينة بولونيا (Bologna) في شمال إيطاليا ، وهي عاصمة إقليم إميليا رومانيا (Emilia Romagna) ، كانت المدينة مستعمرة رومانية وذلك في القرن الثاني قبل الميلاد ، وقد عانت بولونيا في العصور الوسطى المبكرة من آثار الحروب الطويلة بين إكسرخسية رافينا (Byzantine Exarchate of Ravenna) واللومبارديين ، وشهدت الفترة المتراوحة بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر بداية ازدهار المدينة المعماري ، وفي أوائل القرن السادس عشر أصبحت بولونيا ضمنَ المدن الخاضعة =

مدينة فلورنس

ومن هناك واصلنا سفرنا إلى فيلورانسه[1] ، وهي من بين مدنِ إيطاليا مشهورةٌ ومعمورةٌ ، ويوجدُ فيها مقرُ حكومةِ غراندوقة طوسقانه ، والحقيقةُ أنَّ المدينةَ المذكورةَ كبيرةٌ وقديمةٌ ويجري في وسطها نهرُ وارده[2] ، وتوجدُ فيها قصورٌ عظيمةٌ ومتاحفُ للرسوماتِ الجميلةِ ، وكنائسُ قديمةٌ فخمةٌ للغايةِ ومبنيّةٌ من الحجرِ على شكل

= للسلطة البابوية ، وبقيت كذلك حتّى سنة ١٨٥٩م ، وتعدُّ المدينة اليوم واحدة من الوجهات السياحية في إيطاليا وتشتهرُ بمبانيها ذات الطراز المعماري الجميل ، كما تشتهرُ بجامعتها التي تُعدّ من أقدم جامعات العالم حيثُ تأسست في القرن الحادي عشر . للاستزادة راجع :

Mario Longhena et al., "Bologna", *Enciclopedia Italiana*, 1930, Vol. 7, pp.326-350.

(١) تقعُ مدينةُ فلورنس (Firenze) على ضفاف نهر الأرنو في مقاطعة توسكانا (Toscana) وسطَ إيطاليا ، وهي واحدة من أهم مدنِ إيطاليا من حيثُ القيمة التاريخيّة والإرث الفنّي والمعماري الذي تحظى به . وقد أنشأ الرومان مدينةَ فلورنس في القرن الثاني قبل الميلاد ، وكانت المدينةُ مهدًا لعصر النهضة في إيطاليا ، كما شكلت منذ أوائل القرن الرابع عشر وحتّى أواسط القرن السادس عشر المركزَ الثقافي والتجاري الأهم لإيطاليا ، أصبحت فلورنس عاصمةً لإيطاليا خلال الأعوام ١٨٦٥م و١٨٧١م إلى أن انضمّت روما إلى مملكة إيطاليا وأصبحت عاصمةً لها ، وقد تعرَّضت المدينة إلى كثير من الخرابِ إبّان الحرب العالمية الثانية كما تعرّضت إلى فيضان كبير أواخر سنةَ ١٩٦٦م أضرَّ بكثير من كنوزها الفنية والمعماريّة التاريخية ، وتعدُّ مدينة فلورنس اليوم من أبرز الوجهات السياحيّة في إيطاليا وتشتهرُ بالفنّ والعمارة . للاستزادة راجع :

Attilio Mori et al., "Firenze", *Enciclopedia Italiana*, 1932, Vol.15, pp.435-463.

(٢) كذا وردت ، ويقصدُ نهرَ الأرنو (Arno) في إقليم توسكانا (Toscana) ، ويعدُّ ثاني أكبر نهر في إيطاليا بعدَ التيبر (Tevere) ، وينبعُ الأرنو من جبلِ فالترونا (Monte Falterona) ومن جبال الأبينيني (Appennini) ويصبُّ في البحر التيراني (Mar Tirreno) ، مرورًا بأريتسو (Arezzo) وبيزا (Pisa) وفلورنس (Firenze) وامبولي (Empoli) ، ويبلغُ طول هذا النهر من منبعهِ إلى مصبّه ٢٤٥ كيلومترًا . انظر :

Attilio Mori, "Arno", *Enciclopedia Italiana*, 1929, Vol. 4, pp.550-551.

الفسيفساء ، وبرغم أنَّ مدينةَ فيلورانسه بسيطةٌ بعضَ الشيء إلا أنه توجدُ في أطرافها وجوارها مصايفُ مرتفعةٌ ، وخاصّةً مصيفٌ يُقالُ له حاشينه[1] وهو مُزيّنٌ بالأشجار المتساوية ، وفيه قصرٌ للغران دوقة ذو حديقةٍ جميلةٍ للغايةِ ، وهنا استرحنا وأقمنا بضعةَ أيّامٍ .

السفر إلى ليفورنو مرورًا بمدينة بيزا

وبعدَ ذلك عقدنا العزمَ على السفرِ إلى ليغورنه[2] بُغيةَ التنزُّه في البرِّ والبحر ، وفي منتصفِ الطريقِ إليها وصلنا إلى مدينةِ بيز[3] وفيها كذلك يجري نهر وارده ، كما توجدُ فيها أبنيةٌ عظيمةٌ جدًّا وقديمة [٢٦] ، ذلك أنه توجدُ في البلادِ الإيطاليةِ منذُ زمنِ روما الكثيرُ من الأبنيةِ المرتفعةِ والمزيّنةِ بالمرمرِ ، ولهذا السبب فقد كانت

---

(١) لعل الرحالة يقصدُ متنزّه كشينه (Parco delle Cascine) في فلورنس ، والقصر المذكور هو قصر كشينه الملكي (Palazzina Reale delle Cascine) .

(٢) كذا وردت ، ويقصدُ ليفورنو (Livorno) ، وهي مدينة صغيرة من أعمال إقليم توسكانا (Toscana) الإيطالي ، وتعدُّ من أهمّ الموانئ البحريّة في إيطاليا ، واكتسبت المدينةُ أهميةً كبيرةً عندما أُلحقتْ ببيزا (Pisa) سنة ١١٠٣م ، وتمَّ تحصينها في القرن الرابع عشر وبيعت سنة ١٣٩٩م لأسرة فيسكونتي الحاكمة (١٢٧٧م-١٤٤٧م) ، ثمَّ إلى الجنويين بعدَ ثمانيةِ أعوام ، وفي سنةِ ١٤٢١م آلت للفلورنسيين ، وحظيتْ ليفورنو بأهميةٍ كبيرةٍ خلال القرن السادس عشر تحت حكم آل ميديشي (De Medici) ، وبلغَ عددُ سكّان المدينة سنةَ ١٨٣٧م-أي قبلَ عامٍ من رحلةِ محمد صادق رفعت باشا- ستة وسبعونَ ألفا ومئة وست وثمانون نسمة ، أصبحتْ ليفورنو جزءاً من مملكة إيطاليا سنةَ ١٨٦١م . للاستزادة حولَ تاريخ المدينةِ راجع :

Attilio Mori et al., "Livorno", *Enciclopedia Italiana*, 1934, Vol.21, pp.334-339.

(٣) تقعُ مدينة بيزا (Pisa) في إقليم توسكانا (Toscana) وسطَ إيطاليا على الضفة الشمالية لنهر الأرنو ، وهي مدينةٌ جامعيةٌ ووجهةٌ سياحيّة هامة ، وتشتهرُ ببرجها المائل وتبعدُ عن فلورنس قرابة ٩٠ كيلومترًا . للاستزادة راجع :

Attilio Mori et al., "Pisa", *Enciclopedia Italiana*, 1935, Vol.27, pp.392-405.

أعلى شأنًا من سائرِ البلاد الأوروبية الأخرى . وتوجدُ في مدينةِ بيزه المذكورة مقبرةٌ عظيمةٌ وفيها كنيسةٌ كبيرةٌ تُسمّى طوما[١] وبرجٌ مائلٌ من الأساس[٢] .

ومن هناك وصلنا إلى مدينةِ ليغورنه آنفةِ الذكر ، وهي ميناءٌ تجاريٌّ عظيمٌ ومشهورٌ على ضفافِ البحرِ الأبيضِ المتوسط ، ويمكنُ التنزُّه في مينائها المنيعِ وحصونها وقلاعها في القوارب من خلالِ قنواتِ الماء .

ومن حيثُ إنَّ ورودَ كافةِ الأمتعةِ والسّلع التجارية هناك ليسَ ممنوعًا فقد كَثرتِ التجارةُ ، ولذلك فقد عملوا في أحدِ الجوانبِ على التوسيع بإنشاء الأبنيةِ الكبيرةِ والجميلةِ باستمرار . والهواءُ -لنقائه في هذه المدينةِ- هو ألطفُ من سائرِ الأماكنِ التي مررنا بها . ومن حيثُ وجودِ قنصلٍ من طرفِ الدّولة العَليَّة في الموضع المذكور إضافةً إلى تجارٍ من أهل الإسلام فقد ارتحتُ وأقمتُ هناك ثلاثةَ أيام ، وبعدها عُدنا مرةً أخرى عن طريقِ فيلورانسه وبولونيا ووصلنا إلى مدينةِ فرّاره[٣] الواقعةِ أصلًا في الطريقِ إلى البندقيّةِ ، وهي ضمن حكومة البابا ، وهذه المدينةُ عظيمةٌ وقديمةٌ ، ومن

---

(١) يعودُ تاريخُ كاتدرائية بيزا (Duomo di Pisa) إلى العصور الوسطى حيثُ أُنشئت أواسطَ القرن الحادي عشر الميلادي .

(٢) وهو برج بيزا المائل (Torre di Pisa) .

(٣) تقعُ مدينة فيرًارا (Ferrara) في إقليم إميليا رومانيا (Emilia Romagna) شمال إيطاليا ، وذلك على بعد نحو ٤٦ كيلومترًا من مدينةِ بولونيا (Bologna) ، لا تُعرفُ أصول هذه المدنية على وجه الدقّة ، كما أن اسم فيرارا لا يظهرُ بينَ المدن القائمة زمن الرومان ، غيرَ أنه من المؤكد أن أصول المدينة تعودُ إلى العصور الوسطى ، وقد كانت فيرارا واقعةً تحتَ سلطة روما البابويّة منذ عام ١٥٩٨م وحتّى عام ١٨٥٩م حيثُ أصبحت جزءًا من مملكةِ إيطاليا الموحدة . وقد بلغ عدد سكان المدينة سنةَ ١٨١٦م -أي قبل نحو عشرين عامًا من رحلة محمد صادق رفعت باشا- واحدًا وثلاثين ألفًا وخمسمئة وخمسًا وعشرين نسمة . للاستزادة راجع :

Mario Longhena et al., "Ferrara", *Enciclopedia Italiana*, 1932, Vol.15, pp.41-50.

هناك وصلنا إلى بادوايه[١] ، وهي مدينةٌ كبيرةٌ ومعمورةٌ بأبنية قديمة ، ويَرى القادمُ من بادوايه إلى البندقيّة الكثيرَ من المصايفِ الكبيرةِ والجميلةِ الممتدَّةِ على ضفّةِ النَّهر .

مدينة البندقيّة

ولدى وصولنا إلى الميناءِ ركبنا القواربَ التي يُسمُّونها غوندوله[٢] وبهذا كان وصولنا إلى البندقيّةِ مُيسَّرًا . وهذه المدينةُ لا نظيرَ لها على وجهِ المعمورةِ ، وإن كان أكثرُ شكلِ البناء وطرازه فيها مشابهًا للأماكنِ التي رأيناها في البلادِ الأوروبيّةِ إلاّ أنّ هذه المدينةَ في حقيقةِ الأمرِ ليست مماثلةً لسائرِ تلك البلادِ ، وذلك لأنَّ أطرافها الأربعة محاطةٌ بالبحرِ ، ومن حيثُ إنها قديمًا كانت على هيئةِ جزرٍ صغيرةٍ فإنهم أنفقوا أموالًا كثيرةً لأجلِ بناءِ الأرصفةِ ، وأنشأوا فوقها الأبنيةَ الكبيرةَ والمتينةَ ، ولا مثيلَ لهذه المدينةِ بين سائرِ المدنِ حتَّى إنَّ كافَّةَ الأزقةِ قد تُركتْ على شكلِ قنواتٍ يجري فيها الماءُ ، وينتقلُ الناسُ بينَ الأزقّةِ راكبينَ القواربَ ، وبنوا فوقَ القنواتِ جسورًا حجريَّةً عديدةً .

وحينما كانت البندقيّةُ تتمتعُ بمكانتها وقوّتها ونشاطِ تجارتها [٢٧] فقد بنوا

---

(١) تقع مدينة بادوفا (Padova) في إقليم الفينيتو (Veneto) ، وقد كانت المدينة مأهولة في العصر البرونزي والحجري ، وأصبحت مستعمرة رومانية سنة ٨٩ قبل الميلاد ، أصبحت المدينة جزءاً من جمهورية البندقية منذ عام ١٤٠٥م وحتّى سقوط الجمهورية سنةَ ١٧٩٧م ، وفي عام ١٨٦٦م أُلحقت بادوفا بمملكة إيطاليا . للاستزادة راجع :

Arrigo Lorenzi, "Padova", *Enciclopedia Italiana*, 1935, Vol. 25, pp.887-899.

(٢) الغوندوله (Gondola) هي قوارب تجذيف صغيرة تمتازُ بها مدينة البندقيّة في إيطاليا ، وتُستخدمُ للتنزّه وكذلك كوسيلة نقل ، وتعودُ أول إشارة لهذه القوارب إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، ولكنّها كانت أكبر حجمًا مما هي عليه الآن إذ كان التجذيف يتمُّ بواسطة اثني عشر مجذافًا ، وتطورت هذه القوارب متخذةً أشكالًا مختلفة ، ويعودُ شكل الغوندوله الحالي إلى القرن الثامن عشر ، ووفقًا لقانون صدرَ قديمًا فإن هذه القوارب يجبُ أن تُطلى باللون الأسود . للاستزادة راجع :

Ugo Nebbia, "Gondola", *Enciclopedia Italiana*, 1933, Vol.17, pp.533-534.

القصورَ والكنائسَ الجميلةَ والعظيمةَ ، وتوجدُ بالأخصّ ترسانة كبيرة مبنيَّة بالحجارة . كما توجدُ في البندقيةِ كنيسةٌ قديمةٌ يقالُ لها سانمارقو[1] ، وفوقَ بوابتها تماثيلُ لخيولٍ مصنوعة من البرونز ، ووفقَ ما يُروى فإنَّ هذه التماثيلَ في الأصل كانت في القُسْطنطينيَّة[2] وقد جلبها البنادقةُ الذين كانوا في ذهابهم هناك يُحضرونَ العديدَ من الآثارِ القديمةِ زمنَ الرُّوم .

مرورُ ناظرِ الأمورِ الخارجيةِ مصطفى رشيد باشا بالبندقيَة

وفي يوم الجمعة السَّادس عشر من شهر رجب الشَّريف[3] كان من المقرَّرِ وصولُ الإمبراطورِ إلى البندقيّةِ ، وفي هذه الأثناء ، شاءت الأقدارُ أنْ كانَ ناظرُ الأمورِ الخارجيةِ في دارِ السَّعادة[4] حضرةُ دولة المشير الأفخم مصطفى

(١) سان ماركو (San Marco) هي كاتدرائية تقعُ في ساحةِ سان ماركو بالبندقيّة ، ويعود بناؤها إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، والكنيسةُ ذاتُ طرازٍ بيزنطيّ ولها خمسُ قبابٍ ومُزيَّنه بأربعة خيولٍ من البرونز .

(٢) سُمِّيت القسطنطينية بهذا نسبةً للإمبراطور الروماني قُسطنطين الأول ، وقد أصبحت عاصمةً رسميةً للإمبراطورية الرُّومانية الشَّرقية سنة ٣٣٠م ، تعرضت المدينة طيلة مئات السنين لهجمات من جانب الفرس والبدو ، وحاصرها المسلمون أكثر من مرة ، وأخيرًا فتحها العثمانيون سنة ١٤٥٣م وأصبحت منذ ذلك الحين عاصمةً للدولة العثمانية ، وبقيت كذلك حتّى ١٩٢٣م ، وسماها الأتراك إسلامبول وإسطنبول وشنوا حملاتٍ عسكريةً على أوروبا والشرق الأوسط انطلاقًا من المدينة . للاستزادة راجع :

H. Inalcık, "Istanbul", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 4 (Leiden: Brill, 1978), pp.224-248.

(٣) وهو الموافق للخامس من تشرين الأول عام ١٨٣٨م .

(٤) أي اسطنبول .

رشيـــد باشـــا[1] الـــذي كـــانَ قـــد عُيِّـــنَ سفيـــرًا فـــوقَ العـــادةِ فـــــي

(١) وُلد مصطفى رشيد باشا في اسطنبول في الثالث عشر من مارس سنة ١٨٠٠م ، وتلقّى العلوم الأولية على يدِ أبيه ، لكنه تُوفّي حينما كان مصطفى في العاشرة من عمره ، فتعهده أحد أقاربه ويُدعى اسبرطلي سعيد علي باشا ، والتحقَ مصطفى بالمدرسةِ التابعة للمسجد ، غيرَ أنه لم يكمل تعليمه ولم يحصل على الإجازة . شاركَ مصطفى رشيد في الحملة ضد ثورة اليونانيين (يونان عصياني) سنةَ ١٨٢١ ، حيثُ عاينَ بنفسهِ ما آلَتْ إليه حالةُ الجيش العثماني من ضعف ، كما شاركَ في الحرب العثمانية الروسية سنةَ ١٨٢٨م حيثُ لفتت التقارير التي كان يُرسلها إلى العاصمةِ انتباهَ السلطان محمود الثاني ، الذي كان يبحثُ عن رجالِ دولةٍ مؤهلين وإصلاحيين قادرين على تنفيذِ إصلاحاته ، فتم تعيينه في العميدي أوضاسي ، وفي سنةِ ١٨٢٩م عُيّنَ على رأسِ الوفدِ العثماني في محادثات السلام مع الروس في مدينةِ أدرنة ، ويبدو أنه خلال هذه الفترة أصبحَ ضمنَ دائرة رئيس الكتاب برتو باشا ، فرافقه سنةَ ١٨٣٠ إلى مصرَ أثناء المفاوضات مع محمد علي باشا ، وفي عام ١٨٣٤م أرسلَ مصطفى رشيد باشا سفيرًا إلى باريسَ ، بُغيةَ استعادةِ الجزائر من الفرنسيين ، وفي طريقهِ إلى هناك مرَّ عبر فيينا والتقى الأمير مترنيخ (Metternich) ، وبعدَ فترة وجيزة من وصوله إلى باريس أخذ على عاتقه تعلم الفرنسية ، وبالفعل تمكن من تعلمها ؛ وحينَ عاد إلى فرنسا سنة ١٨٣٩م استقبله الملك لويس فيليب (Louis Philippe) وكان مصطفى قادرًا على التحدث إلى الملك دونَ حاجة إلى مُترجم . أصبحَ مصطفى رشيد في رتبة مشير سنةَ ١٨٣٧م وعُيّنَ ناظرًا لشؤون الخارجيّة ، ثم عُهِدَ له بالمنصبِ نفسه مرة أخرى سنةَ ١٨٤٥م ، وبعدَ ذلك بعام تولى منصب الصدارة العظمى لأولِ مرة ، وهو المنصب الذي شغله ست مرات ، وكانت أطولَ فترة هي الصدارة الثانية سنة ١٨٤٨م حيثُ دامت ست سنوات ، وكانت أكثر سنوات مصطفى رشيد إنجازًا من حيثُ المضي في مشروع الإصلاحات القضائية والتعليمية والإدارية ، ويعدُّ مصطفى رشيد أفندي أحد أقوى المنفذين لإصلاحات عهد التنظيمات التي بدأها بجرأة السلطان محمود الثاني . وافته المنية في كانون الثاني من سنة ١٨٥٨م ودُفِنَ في ناحيةِ بايزيد في اسطنبول . انظر :

E. J. Zürcher, "Reshid Pasha, Mustafa", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 8 (Leiden: Brill, 1994), pp.484-486.

وانظر : B. Lewis, the Emergence of Modern Turkey, p.103-104.

لندن[١] ، مارًا في سفرِه عن طريق إيطاليا ، وفي صباح اليوم المذكور وصلَ إلى البندقية ، وتوافقَ توجّههُ إلى محلّ إقامته في السَّفارة العليَّة المُستأجرةِ دخولَ موكبِ الإمبراطورِ إلى البندقية ، فشاهدنا الموكبَ برفقته ، ويتكون الموكب من قوارب خاصَّة حيثُ جاءَ الإمبراطورُ في قاربٍ مغطّىً ومزيّنٍ ، وفي تلك الليلة زُيِّنت المدينةُ بالقناديلِ المضاءةِ .

مراسم التتويج في البندقيَّة وما تَبِعَ ذلك

وفي اليوم الثاني من وصولِ الإمبراطور أي يوم السبتِ قامَ أعيانُ المدينةِ بإجراءِ مراسمِ القبولِ والبيعةِ ، وفي المساءِ قامت أكابر النساءِ أيضًا بهذه المراسم ، وبعد ذلكَ دُعينا رسميًا لحضور المسرحِ .

وفي اليوم الثالث وهو يوم الأحدِ توجّه الإمبراطورُ وجميعُ سفراءِ الدّول الصديقة إلى كنيسة سانمارقو وذلك في موكبٍ خاصٍّ ، وبعد ذلك أُجريَ سباقُ القوارب .

وفي اليوم الرَّابع وهو يوم الاثنين زرنا آثارَ البلدة بما فيها من سائر أنواعِ الصنائعِ والحِرف ، وفي المساء أُقيمت مأدبةٌ رسميّةٌ في قصرِ الإمبراطور .

وفي اليوم الخامس وهو يوم الثلاثاء زرنا خليجَ البندقيّة ، ورأينا سائرَ الحصونِ القديمةِ ، وبعدَ الغداءِ ذهبنا إلى المسرحِ حيثُ شاهدنا مختلف عروضِ الرّقص وما شابه ذلك .

---

(١) أُرسِلَ مصطفى رشيد باشا سفيرًا إلى لندن في أغسطس من عامِ ١٨٣٨م بُغيةَ التوصل إلى تحالف دفاعي مع بريطانيا ضدّ محمد علي باشا ، وبرغمِ أن هذه التحالف لم يتحقق إلاّ أن مصطفى رشيد باشا قد حصلَ على ضمانات بالدعم البريطاني ، وضمنَ الجهود الرامية إلى الحصولِ على هذا الدعم وقّعَ العثمانيون في السادس عشر من شهر أغسطس من العامِ نفسه معاهدة تجارية تفتح السوق العثماني أمام البضائع البريطانية وتتعهّدُ السلطات العثمانية بموجبها بإلغاء الاحتكار الذي تمارسه الدولة . انظر :

E. J. Zürcher, "Reshid Pasha, Mustafa", *Encyclopedia of Islam*, New Edition, vol. 8 (Leiden: Brill, 1994), p.485.

وفي اليوم السَّادس وهو يومُ الأربعاء توجّهَ الإمبراطورُ إلى جزيرة مودانو[1] [٢٨] وذلك بُغيةَ رؤيةِ الزّجاجِ والحُليِّ وسائرِ الأشياءِ المصنَّعةِ ، وفي المساءِ نُظِّمَ في قصرِ الإمبراطورِ حفلٌ راقصٌ كبيرٌ قوامه ألفي راقصٍ .

وفي اليوم السَّابع وهو يوم الخميس ذهبنا لرؤيةِ بعض الأماكن الجميلةِ والمشهورةِ في البلدةِ ، ثمّ توجهنا إلى حيثُ يَلعبونَ القمارَ ، وفي المساء تحولنا إلى المسرح .

وفي اليوم الثامن وهو يوم الجمعة ، ومن حيثُ إن الإمبراطورَ أرادَ الذهابَ لرؤيةِ الترسانة فقد أُخبِرَ السفراءُ جميعُهم لأجلِ مرافقته ، وهناك أُجريتْ بعضُ المناورات . وفي المساء أيضًا أجرتِ القوّاتُ البحريّةُ عروضًا .

وفي اليوم التاسع وهو يوم السّبت رأينا متاحفَ للرسومِ والأصنام ، وفي المساء كانت ساحةُ سانمارقو الكبيرة مزيَّنةً بالقناديل المضاءة .

وفي اليوم التالي توجَّهنا رسميًا لأجلِ رؤيةِ ترسانةِ البندقيّة ، وشاهدنا هناك سفينة قروت[2] قد أُعِدَّتْ وأُنزِلتْ في البحر ، وفي المساء أُطلقت بعضُ الألعابِ

---

(١) كذا وردت ، والجزيرة المقصودة هي جزيرة مورانو (Murano) وهي من أعمالِ مدينةِ البندقية على بعدِ ميل واحد إلى الشمال ، وتقعُ على تسع جزر تفصلُ بينها قناة تُدعى القناة الكبيرة (Canal Grande) ، وتعودُ شهرة هذه الجزيرة إلى صناعة الزجاج التي بلغت ذروة ازدهارها في النصف الأول من القرن السادس عشر . للاستزادة راجع :

Gino Fogolari et al., "Murano", *Enciclopedia Italiana*, 1934, Vol.24, pp.48-49.

(٢) من الواضح أن الرحالة يقصدُ السفينة التي تعرف باسم كورفت (Corvette) أو الفرقيطة وهو الاسم الذي يُطلقُ في البحرية الأوروبية على سفن حربية صغيرة ، وقد استُخدم اسم كورفت في البحرية الفرنسية أول مرة حوالي سنة ١٦٨٧م ، وأُطلِقَ على سفنٍ تحملُ على متنها نحو ٢٦ مدفعًا ، وقد ازداد استخدام هذا النوع من السفن بعد عام ١٨١٥م ، وفي عام ١٨٨٦م كانت هذا السفن تشكلُ ثلثَ البحرية البريطانية ، وتُستخدمُ الكورفت اليوم في البحريّة الأوروبية كسفن حربية صغيرة مضادة للغواصات . انظر :

John D. Hayes, "Corvette" *The Encyclopedia Americana*, 1983, 8/30.

النارية في خليج البندقيةِ ، وفي اليوم التالي زُرنا بعضَ آثارِ البلدةِ ، وفي المساءِ شاهدنا السُّفنَ المزيّنةَ بالقناديل .

وفي يوم الأحد ، ولأجلِ إجراءِ مراسم تتويج شبيهةٍ بتلك التي أُجريتْ في ميلان ، فقد توجّهَ الإمبراطورُ المشارُ إليه إلى صالةٍ كان يجتمعُ فيها أعضاء مجلسِ الشورى زمن جمهورية البندقيّة ، وتقعُ هذه الصالة في قصرٍ كان مخصوصًا بدوقاتِ جمهوريةِ البندقيَّة قديمًا(١) ، كما توجّه إلى هذه الصالةِ بعضُ أركانِ الدّولة ورؤساء ميلان والبندقيَّة مرتدينَ الملابس المخملية والمزيَّنة وفقَ الأصولِ المتبعةِ في مراسم التاج الحديدي المخصوص بعظيم الأهميّة في مملكة إيطاليا ، وذلك لأداءِ اليمين . وبحسبِ العادات الغربية فإنّ الرؤساءَ المذكورين يحضرونَ أمامَ الإمبراطورِ ثُلاثًا ثُلاثًا ، ويقومِ الإمبراطور برفع سيف موضوع على جانبه ويضربُ به على أكتافِ هؤلاء المذكورين في كنايةٍ على أنهم سيظهرونَ الولاءَ والصّدقَ في كلٍّ الأحوال وذلك من أجلِ بقاءِ الدولة .

وبعد ذلك قلّدَ الإمبراطور بيدهِ النياشينَ والأوشحة لعمّه الكبير الأرشيدوق وابن وكيل مملكة إيطاليا ، وسرعسكر ميلان والبندقية ، وقادتهما البحرية وولاتهما وآخرين من نحو أربعين من أعيانهما كل حسبَ رتبته [٢٩] . وبعدَ ذلك دُعِيَ الرؤساء آنفي الذكر إلى مأدبة طعام في صالةِ القصرِ المذكورة ، وجلسَ الإمبراطورُ على المائدةِ رفقةَ وكيلِ الملك فقط ، وتناولوا الطعامَ وهم يستمعونَ إلى الموسيقى . وبعدَ أن انتهى الرؤساءُ من تناولِ طعامهم عادَ الإمبراطورُ إلى القصر ، وفي المساء ذهبنا إلى مسرح المسخرة .

وفي اليوم الحادي عشر وهو يوم الاثنين جرتْ بعضُ الاحتفالات ، وفي المساء عمِدَ الإمبراطورُ إلى تسويةِ المصالحِ اللازمةِ والمتعلقةِ بأمور دولته .

وفي اليوم الثّاني عشر وهو يوم الثلاثاء قدّمَ الإمبراطورُ العطايا اللازمة للقادمين إليه ، وفي المساء أُقيمت مأدبةٌ عظيمة في قصرِ الإمبراطور .

---

(١) القصر المذكور هو قصر الدوقات بالبندقية (Palazzo Ducale di Venezia) والصالة المذكورة هي صالة المجلس الأعلى (Sala del Maggior Consiglio) .

العودة إلى فيينا ثمّ إلى اسطنبول

وفي اليوم الثالث عشر وهو يوم الأربعاء فإنّ الإمبراطور وجناب وكيله سافرا ، وكذلك نحنُ في أثناءِ ختام المراسم المشروحة تحرّكنا من البندقية ، ولأجلِ زيارة تريسته(1) فقد سلكنا طريقها ووصلنا إليها بعدَ يومين ، وفي هذه المدينة ميناءٌ بحريٌّ مشهورٌ ومعمورٌ ، وفيها سوقٌ عظيمٌ ، وأبنيةٌ وأزقّةٌ حديثةٌ وجميلةٌ ، وأقمنا هناك يومين ، ثمّ سافرنا عن طريقِ غراج(2) ، ووصلنا إليها ، وغراج هي مقرُّ إيالةِ حكومةِ النمسا ، وهي مدينةٌ جميلةٌ ، ونزلنا فيها يومًا واحدًا .

وفي اليوم التالي تحرّكنا ، وفي اليوم السّادسِ من شعبانَ الشّريف(3) عُدنا إلى فيينا حيثُ مركزِ السّفارةِ ، ووصلنا سالمينَ بتيسيرٍ من جَنَابِ ربِّ العِزةِ خيرِ الوسيلة . وفي ختامِ مهمتنا كانت عودتُنا ووصولُنا إلى دارِ السّعادةِ كذلك ميسّرةً ، أعاننا اللهُ سبحانه وتعالى ووفّقنا في كافّةِ أعمالنا ، آمين [٣٠] .

---

(١) مدينةُ تريستي (Trieste) هي عاصمة إقليم فريولي فينيتسيا جوليا (Friuli-Venezia Giulia) شمال شرقي إيطاليا قرب حدود سلوفينيا ، وتبعدُ عن البندقيّة سبعينَ ميلًا . للاستزادة راجع :

Henry Paolucci, "Trieste" *The Encyclopedia Americana*, 1989, 27/100-103.

وجاء الإدريسي على ذكر مدينة تريستي وسمّاها إصطاجانكو : «وهي مدينةٌ متحضرة كبيرة القطر ، عامرة بالأجناد والعمال والرجال والتجار والصناع . . .» ، انظر : الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن محمد الحسني ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، منشورات المعهد الجامعي الشرقي بنابولي ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، طبعة نابولي - روما ،١٩٧٧م ، ج ٧ ، ص : ٧٤٨ .

(٢) كذا وردت ، ويقصدُ مدينةَ غراتس (Graz) ، وهي مدينةٌ في جنوبِ النمسا على بعدِ ١٤٤ كيلومترًا إلى الجنوبِ الغربي من فيينّا ، وتعدُّ ثاني أكبر مدنِ النمسا ، وقد كانت المدينة عرضةً للتهديد المستمر في جانبها الشرقي من قبلِ الأتراك والمجر ، مما جعلَها بمثابة مدينة حدوديّة ، تعرّضت غراتس لخراب كبير إبان الحرب العالمية الثانية . وتعدُّ المدينة اليوم واحدةً من الوجهات السياحية الهامة في البلاد . انظر :

John H. Paterson, "Graz" *The Encyclopedia Americana*, 1983, 13/214-215.

(٣) وهو الموافق للخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٨٣٨م .

المصادر والمراجع

* ابن إياس ، محمد بن أحمد الحنفي المصري ، المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ، مطابع الشعب ، ١٩٦٠م .
* الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن محمد الحسني (ت . ٥٦٠هـ/١١٦٦م) ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، منشورات المعهد الجامعي الشرقي بنابولي ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، طبعة نابولي-روما ١٩٧٥م .
* أوزتونا ، يلماز ، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة عدنان محمود سلمان ، مؤسسة فيصل للتمويل ، اسطنبول ١٩٨٨م .
* بروكلمان ، كارل ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٨م .
* جلبي ، كاتب ، تحفة الكبار في أسفار البحار ، دار الطباعة المعمورة ، القسطنطينية ، ١٧٢٩م .
* الحمويّ ، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت . ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ، معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت ١٩٧٩م .
* صابان ، سهيل ، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانيَّة التاريخية ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ٢٠٠٠م .
* طقّوش ، محمد سهيل ، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م ، دار النفائس ، بيروت ١٩٩٧م .
* القدّوري ، عبد المجيد (تنسيق) ، التاريخ والدبلوماسيّة ، قضايا المصطلح والمنهج ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة ، الرباط ٢٠٠٣م .
* مانتران ، روبير (إشراف) ، تاريخ الدَّولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعي ، دار الفكر للنشر والدراسات والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣م .
* المحامي ، محمد فريد بك (ت . ١٣٣٧هـ/١٩١٩م) ، تاريخ الدولة العَلِيَّة العثمانية ، تحقيق إحسان حقي ، الطبعة الأولى ، دار النفائس ، بيروت ١٩٨١م .

* مصطفى ، أحمد عبد الرحمن ، أصول التاريخ العثماني ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٢م .
* المعنيّ الثاني ، الأمير فخر الدين ، رحلة الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني إلى إيطاليا ، حقّقها وقدَّم لها قاسم وهيب ، دار السويدي والمؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ، أبوظبي ، بيروت ٢٠٠٧م .
* المكناسي ، محمد بن عثمان ، الإكسير في فكاك الأسير ، حقّقهُ وعلّق عليه محمد الفاسي ، المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ١٩٦٥م .
* موير ، وليم ، تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩٥م .
* يكرمي سكز ، محمد جلبي أفندي ، سفر إلى فرنسا ، دراسة وتحقيق زيد عيد الرواضيّة ، الطبعة الأولي ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ٢٠١٤م .

المصادر والمراجع الأجنبية

* Ali Fuad (1929), "Rical-i Tanzimattan Sadık Rifat Pasa , Türk Tarihi Encümeni Mecmuası, I.
* Allen, Henry Elisha (1935), the Turkish Transformation: a Study in Social and Religious Development, Illinois.
* Arthur L. Friedberg, Ira S. Friedberg (2009), Gold Coins of the World: From Ancient Times to the Present : An Illustrated Standard Catalogue with Valuations, New Jersey, The Coin and Currency Institute, Inc.
* Asiltürk, Bâki (2009), Edebiyatın Kaynagı Olarak Seyahatnameler, Turkish Studies, International Periodical for the Languages, literature and History of Turkish or Turkic, 4(1), 911-995.
* Bellingeri, Giampiero (2008), Sguardi turco-ottomani su Venezia e i Veneziani in U. Israel A C. DI, La diversa visuale. Il fenomeno Venezia

osservato dagli altri, Roma-Venezia, Edizioni di Storia e Letteratura-Centro Tedesco di Studi Veneziani - Biblioteca Nazionale Marciana, Venezia.

* Berger (1838), Denkbuch der Kronung Seiner Majestat Ferdinand I. am 6. September 1838 zu Mailand, Wien, Sollinger.
* Cahit Bilim (1989), "Mehmet Sadık Rıfat Pasa. Italya Seyehatnamesi, Müntehabat-ı Asar, Istanbul 1291, s. 14/30", Anadolu Üniversitesi Egitim Fakültesi Dergisi, c. II/2, 259-274.
* Cesare Cantù (1858), Grande illustrazione del Lombardo-Veneto Ossia Storia delle Città, dei Borghi, Comuni, Castelli, ecc. Fino ai Tempi Moderni, Milano, Corona e Caimi Editori.
* Çigdem Kafescioglu, Lucienne Thys- Senocak, (Hazırlayanlar) (1999), Aptullah Kuran Için Yazılar Istanbul, YKY.
* Dozy, Reinhart (1845), Dictionnaire Détaillé des Noms des Vêtements chez les Arabes, Amsterdam, Jean Müller.
* Findley, Carter V. (1980), Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire: The Sublime Porte, 1789-1922, New Jersey, Princeton University press.
* Gallicciolli, Giovanni Battista (1795), Delle Memorie Venete Antiche, Profane ed Ecclesiastiche, Venezia, C. Fracass.
* Gibb, E J.W. (1907), A History of Ottoman Poetry, London, Luzac & Co., Great Russell Street.
* Giovio, Paolo (1575), Pauli Iouii Nouocomensis Episcopi Nucerini Elogia Virorum Bellica Virtute Illustrium : Septem Libris Iam Olim Ab Authore Comprehensa, Petri Pernae Typographi Basil, Opera ac Studio.
* Göçek, Fatma Müge (1987), East Encounters West, France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century, New York, Oxford University Press.

* Korkut, Hasan (2003), Osmanlı Sefaretnâmeleri Hakkında Yapılan Arastırmalar, Türkiye Arastırmaları Literatür Dergisi, (1)2, pp. 491-511.

* Itzkowitz, Norman (1972), Ottoman Empire and Islamic Tradition, Chicago and London, The University of Chicago Press.

* John M. Kemble M.A (1857), State Papers and Correspondence: Illustrative of the Social and Political State of Europe, from the Revolution to the Accession of the House of Hanover, London.

* Karakartal, Oguz & Devrim, Tunay (2006), Eski Yazı (Osmanlıca) Dergilerde Resimlerle Italyan Varlıgı, Istanbul, Eren.

* Karakartal, Oguz (2003), Türk edebiyatında Italya: Italya ile ilgili yazılar, edebiyat eserleri ve gezi kitapları üzerinde bir deneme, Istanbul, Eren Yay.

* Kenan Akyüz (1985), Batı Tesirinde Türk Siiri Antolojisi, Istanbul, Inkilap Kitabevi.

* Konstantin Mihailovic (1975), Memoirs of a Janissary, trans. Benjamin Stolz, Ann Arbor.

* Lewis, Bernard (1961), the Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press.

* Lewis, Bernard (1982), The Muslim Discovery of Europe, New York.

* Mardin, Serif (1962), The Genesis of Young Ottoman Thought: A Study in The Modernization of Turkish Political Ideas, Princeton University Press, Princeton.

* Mehmet Alaaddin Yalçınkaya (1996), Osmanli Zihniyetindeki Degisimin Göstergesi Olarak Sefaretnmalerin Kaynak Defteri, OTAM, Sayı: 7.

* Münevver Okur Meriç (2006), Sultan Cem: Hayatı, Esareti, Edebi Kisiligi, Eserleri, Siirleri, Ankara, PSY. Vakif Sistem Matbaa Müdürlügü.

* Piri Reis (2002), Kitab-ı Bahriye, T.C. Basbakanlık Denizcilik Müstesarlıgı, Ankara.
* Preto, Paolo (1975),Venezia e i Turchi, Firenze, Sansoni.
* Quataert, Donald (2005), The Ottoman Empire 1700-1922, Cambridge University Press.
* Quindici Giorni in Milano Delle LL. MM. II. RR.: Strenna Per L'Anno 1839, Milano: Presso Carlo Canadelli, nella Galleria de Cristoforis n. 12-13.
* Redhouse, James W. (1996), A Turkish and English Lexicon: Shewing in English the Significations of the Turkish Terms, Beirut, Librairie du Liban.
* Rocchi, Luciano (2008),Tra Guerra E Diplomazia : Un Viaggiatore Turco Nella Dalmazia Del Seicento : Passi Scelti Dal Seyahatname di Evliya C'elebi, Edizioni Italo Svevo.
* Sayar, Ahmed Güner, The Intellectual Career of an Ottoman Statesman: Sadık Rifat Pascha (1806-1858) and his Economic Ideas, IÜ. Siyasal Bilgiler Fakültesi Dergisi No: 16-17-18-19 (Ocak-Temmuz 1997. Ocak-Temmuz 1998).
* Shaw, Stanford (1976), History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, USA, Cambridge University Press.
* Sureyya, Mehmed (1311), Sicilli-i Osmani III, Istanbul.
* Serafettin, Turan (1962), Barak Reis'in Sehzade Cem Meselesiyle Ilgili Olarak Savoie'ya Gönderilmesi, TDAY Belleten, 36(103), ss.539-551.
* T. C. Price Zimmermann, Paolo Giovio: The Historian and the Crisis of Sixteenth-Century Italy, Princeton, N.J., Princeton University Press.
* Tanpınar, Ahmet Hamdi (2012), On Dokuzuncu Asır Türk Edebiyatı

Tarihi, Dergâh Yayınları, 19. Baskı, Istanbul.

* Unat, Faik Re?it (1968), Osmanlı Sefirleri ve Sefaretnâmeleri, Yayımlayan: Bekir Sıtkı Baykal, Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara.

فهرس المحتويات

FROM VIENNA TO VIENNA

من فيينا إلى فيينا

رحلة محمد صادق رفعت باشا إلى إيطاليا 1838

حققها وقدم لها: د. زيد عيد الرواضية

تنتمي رحلة محمد صادق رفعت باشا، وهو من رجالات الدولة العثمانية الإصلاحيين الذينَ وفّروا ذخيرةً أيديولوجية أعانت على استيعاب أسبابِ التقدم الأوروبي ، إلى ما يُعرف بعهد التنظيمات وقد تعددت الكتابات عن أوروبا حينها، وكان آخرها الرّحلة التي نحنُ بصددها، ويصنّفها معظم الدارسين في خانة "السياحتنامه" وليس "السفارتنامه" باعتبار أن صاحبها لم يعيَّن سفيراً في إيطاليا بل في فيينا وذهب في مهمة قصيرة المدى إلى إيطاليا. وذلك في عهد التنظيمات، الذي يؤطره المؤرخون بصدور مرسوم جولخانه سنة 1839م وإلى حين إعلان الدستور العثماني الأول المعروف بالقانون الأساسي أواخر سنةَ 1876م، والذي استلهم روحَ الحداثة الأوروبية آنذاك وحاول تطبيقها في مجالات الحياة المختلفة.

يتميزُ نصُّ الرّحلة بالإيجازِ والتناسق والسّلاسة والبعد عن التنميق وبديع الكلام، كاتبه وصفَ انطباعاته عن أوروبا ببساطة دونَ الانسياق وراء مشاعرِ الدّهشة التي ميزت الرحلات العربيةَ المعاصِرة إلى أوروبا. وتكشف الرحلة عن طبيعة وعي السفيرِ بتاريخ البلادِ الأوروبية وظروفها السياسيّة. ويأتي الرّحالة على وصفِ المدنِ والقرى التي مرَّ بها أو نزل فيها، كما يصف الحصون والقلاع والقصور والكنائس والبساتين ونحو ذلك من المظاهر العمرانية والحضرية. بذل محقق الرحلة جهدا كبيرا في ترجمتها وتحقيقها ودراستها وفي تعليق هوامشها وحواشيها وشرح مصطلحاتها، ببراعة وإتقان واحتراف، ونال عن ذلك بجدارة جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات ■

ارتياد الآفاق











ISBN 978-614-419-752-3
9 786144 197523